القرآن

فى حياة المسلم

دكتـــور

محمود محمد محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

الناشر

مكتبة الإيمان

المنصورة ت : ٢٢٥٧٨٨٢

أمام جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ت : ٢٢٥٧٨٨٢
أمام جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قصة هذا الكتاب

فى رمضان – من عام ١٤٢١ – كنت واحدا من ضيوف صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان .

هؤلاء الضيوف الذين يفدون إلى « دولة الإمارات العربية المتحدة » .

من كل أنحاء العالم الإسلامى بدعوة من سموه . وفى شهر رمضان بالذات .. ليكونوا دعاة إلى الخير ..

وكان طبعيا أن أستعد لهذه المهمة فى بلد لم أره من قبل .. وفى تجربة من هذا النوع .. أمارسها للمرة الأولى فى حياتى :

رجعت إلى « الأضابير » أستخرج منها كل ما يتصل بالقرآن الكريم .. حتى يكون مادة حديثى هناك .

وأليق الأحاديث بشهر القرآن .. ما كان حول هذا القرآن .

ولقد كان الجو كله مشجعاً على الاهتمام بهذه الرحلة :

بدءا من إجراءات السفر فى سفارة دولة الإمارات بالقاهرة . وانتهاء بإصرار وكيل وزارة الشئون الإسلامية على مرافقة المجموعة حتى سلم الطائرة .. ومرورا بلجنة الإشراف التى لم تدخر وسعا فى خدمتنا .

وقد كان ممتعا حقا أن أرى نفسى معزولا فى الفندق الذى يطل على مياه الخليج.. من حيث كان ذلك فرصة ذهبية للكتابة فى ظروف لا يسمح بمثلها الزمان..

وكان ما كتبت هو تلك الأحاديث . التى كنت أفرغ منها . ثم أعود إلى «الفندق» لأسلم نفسى للنوم ..

وفى الصباح .. أسجل بالتفصيل ما قلته للناس فى درس المساء ..

وهو هذه الصفحات التى بين يديك . مضافا إليها بعض الدروس التى تلقيناها عن أستاذنا المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى . لتعم فائدتها . وبخاصة طلاب الدراسات القرآنية الإنسانية .

والله ولى التوفيق

د . محمود محمد محمد عمارة

مسئوليتنا إزاء القرآن

تتعدد جوانب هذه المسئولية على قدر عظمة القرآن ودوره المؤثر فى حياتنا. وهى:

١ - تلاوته

٢ - تدبره

٣ - العمل به

إن القرآن كريم . ومن كرمه اتساع دائرة نفعه لتشمل : من قرأه وعمل به .

ومن عمل به ولم يقرأه .

ومن قرأه ولم يعمل به

الكل مستفيد .. معرَّض نفسه لفيوضات القرآن .. وقد يكون حظ الأمى .

بالعمل به أعظم من حظ عالم .. لم يعمل بما علم .

أما من استدبره .. فانسلخ منه .. فأولئك من الخاسرين ..

وفى هذا يقول عزَّ وجلَّ .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

لقد أعطاه اللّه الآيات . وليس الآلات ..

ولكنه خلعها .. فانطفأ فى كيانه المصباح .. فتخبط فى الظلام .. بسوء اختياره

واجب النظر

إذا رجعنا إلى المرآة ..أحيانا . نسكن الشعر المبعثر ونتحسس النضارة الذاهبة مع أيامنا الذاهبة .. فما أحرانا أن ننظر فى مرآة أصفى وأنفى والتى تكشف المخبوء هناك فى أعماقنا :

فما هى ؟ إنها مرآة القرآن :

وإذا كانت مرآة البيت لا تعكس إلا القشرة البادية .. فإن مرآة القرآن تنفذ إلى الجوهر الدفين ..

إن المسلم ليس تلك « البحيره » التى جمالها فى رقة هوائها . واستواء مائها .

إنه فوق ذلك « بحر » .

بحر زاخر بما هو أغلى من اللؤلؤ والمرجان .. ولا يعكس ذلك إلا مرآة القرآن.

عن زياد بن لبيد قال : ذكر النبى ﷺ شيئا .فقال :

«وذاك عند ذهاب العلم»

قلنا يا رسول اللّه :

كيف يذهب العلم .. ونحن نقرأ القرآن . ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم.. إلى يوم القيامة ؟!!

فقال :

ثكلتك أمك يا ابن لبيد :

إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة!

أوليس هذه اليهود والنصارى . يقرؤون التوارة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء ؟!!

تدبر القرآن

يتقاضانا القرآن أن نرتله : أن نقرآه على مهل . ثم نتدبره .

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾

﴿ .. لتقرأه على مكث ﴾

ولكن .. فيما يتعلق بالاستنباط منه . والانتفاع بمبادئه يقول عزَّ وجلَّ :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

ثم يقول تعالى :

﴿ أفلم يدّبروا القول ﴾ ؟!!

ولاحظ إدغام التاء فى الدال .. إشارة إلى ما يجب على المسلم من إعمال فكره. وتركيزه إرادة فهم مرامى القرآن ..

وكما يقول الشيخ الغزالى :

تماما كالعدسة :

إنها تجمع الأشعة المتفرقه . ثم تركزها على الفتيل فيشتعل نارا ..

وكذلك صاحب القرآن :

عليه أن يخلى ذهنه حتى يصفو من كدر الدنيا .. ثم يركزه على الآية الكريمة حتى يصل إلى ما فيها من أسرار لا يظفر بها إلا من أعطاه حقه من الترتيل .. والتدبر .

متعة النظر :

يقول أحمد بن الحوارى :

(إنى لأ قرأ القرآن : فأنظر فى آية فيحار عقلى . وأعجب من حفاظ القرآن : كيف يهنيهم النوم . ويسيغهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا .. وهم يتكلمون كلام الرحمن ؟!

أما لو فهموا ما يتلون . وعرفوا حقه . وتلذذوا به . واستحلوا المناجاة به .. لذهب عنهم النوم فرحا بما رزقوا وما وُفقوا)

وقد تملك أمة نصف أبقار العالم .. ومع ذلك تظل فقيرة كسيرة !

فقيرة إلى فضائل القرآن التى لا ينالها إلا من وهب حياته له وعَرَض نفسه عليه .. فمنحه سر الحياة . ونعيمها .

هذا النعيم الذى حرم منه من اتخذ القرآن مهجورا . لقد بليت اللذاذات كلها . ورثّت حبالها– كما يقول المنفلوطى – وما يعزّى الإنسان عنها الإ لذة واحدة . هى:

لذة التدبر فى القرآن

ولأن الماديين لا يؤمنون به .. فهم محرومون من نوره

فقد توقع الماديون هزيمتنا فى العاشر من رمضان لما قاسوا القضية بالأحجام والأرقام .. ثم توقعوا أن تكون خسائرنا ستين ألفا من الرجال .

ثم .. لم يتجاوزْ عدد شهدائنا : أربعمائة .

لقد خسر الجواد المادى الرهان .. مع حدة بصره .. ودقة أجهزته لأنه حرم هداية القرآن . ولقد نالنا كفل من هذا الهوان . حين لم نعط القرآن . حظه من الإجلال ..

وشغلنا أنفسنا باللهو .. أو بجمال ترتيله .. دون العمل به :

يقول أحد الباحثين :

(ولكن الشيطان حين عجز عن تحريف تنزيله دخل علينا من باب تأويله ... دخل علينا من باب صرفنا عن تدبر آياته . وتفهم معانيه . والعمل بأوامره ونواهية. إلى تصريف الصوت فى تلاوته بالأنغام وطرب الناس لسماع الصوت بدل الخشوع عند فهم المعانى .

وكان معنى كلمة « القرّاء » حين نقرؤها فى حروب الردة . وذكرُ من استشهد منهم فى معركة اليمامة كان معناها :

الذى يقرأ القرآن متدبرا واعيا . عاملا بما قرأ . معلما إياه من لا يعلم . فصار معناها : البصير بالألحان والمقامات . الخبير بالمحطات والتصرف بالنغمات .

وصار السامعون يتصايحون من الطرب كأنهم يسمعون مغنيا فى ملهى : وصرنا نفتح به ونختم به الإذاعات والحفلات . ويكون بين تلاوة الافتتاح وتلاوة الختام مالا يرضى اللّه من الذنوب والآثام) [1] .

القرآن فى حياة الأسرة

وقد حفل تاريخنا الإسلامى بنماذج وصور تعكس اهتمام الأسرة بالقرآن .. وكيف كان القضية اليومية فى حياة الآباء والأبناء ؟ تأخر عامر بن عبد اللّه بن الزبير فى عودته إلى البيت . فسأله أبوه :

أين كنت يا عامر ؟ فقال :

وجدت أقواما . وما وجدت خيرا منهم :

يُذكر اللّه تعالى . فَيُرْعَدُ أحدهم حتى يُغشَى عليه من خشية اللّه .

فقال له أبوه :

لا تقعد معهم يا عامر بعدها !

فقال عامر :

ولم يا أبتاه .. وهم قوم يخشون ربهم ؟

فقال له أبوه :

---

(١) فى سبيل الإصلاح (١١ – ١٢) .

لقد رأيت رسول اللّه ﷺ يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن .. فلا يصيبهم شيء من هذا . أفتراهم أخشع للّه تعالى من أبى بكر وعمر ؟!

إن الولد هنا مشغول بالقرآن .. وهذه ظاهرة صحية .. أجل ظاهرة صحية أن يتخير الولد عصابة الخير .. لا عصابة الشر ليكون مجلسهم أقرب إلى قلبه ..

لكن ذلك .. كان تحت إشراف الآباء الذين يسددون الخطى حتى لا تزل .. ويوجهون العقول حتى لا تضل .

ورحم اللّه ابن سيرين : لقد سئل عن رجل يتلى عليه القرآن فيصعق فقال : ميعادنا بيننا وبينه أن يجلس على حائط ثم يقرأ عليه من أوله إلى آخره .. فإن سقط فهو كما قال ؟؟

ومن توجيهات الآباء

قال عمرو بن التابعي الجليل « ميمون بن مهران » :

خرجت بأبى أقوده فى بعض سكك البصرة حتى انتهينا إلى منزل الحسن البصرى .

فخرج الحسن البصرى فاعتنق أبى .. ثم دخلا فقال أبى للحسن :

يا أبا سعيد :

قد آنستُ من قلبى غفلة .. فجئتك لتعظنى لعل قلبى يلين .

فما زاد الحسن على أن تلا هذه الآيات :

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىَ عَنْهُـمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ – ٢٠٧] .

فما هو إلا أن سمعها ميمون . حتى سقط مغشيا عليه .

قال ولده عمرو :

فأخذ يَفْحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة فلما أفاق قلت له وأنا آخذ بيده خارجا من بيت الحسن :

يا أبتاه !

هذا الحسن البصرى ؟!

قد كنت أحسب أنه أكبر من هذا ؟!

فقال :

(اسكت يا بنى : لقد قرأ علينا آية . لو فهمتها بقلبك لأبقى لها فيه كلوما)

لقد تلقى الابن الآية فلم تتجاوز عقيرته لكن الوالد يستقبلها بقلبه فلا تتركه إلا مجروحا .. وحتى فى اللحظات العصيبة التى تضعف فيها المقاومة .. تحت ضغط الأحزان المانعة .. فى هذه اللحظات كان القرآن هو لغة التخاطب بينهم . أخرج الإمام أحمد بإسناده . قال :

خطب معاذ – رضى اللّه عنه – بالشام فذكر الطاعون . ثم قال : إنها رحمة ربكم. ودعوة نبيكم : وقدر الصالحين قبلكم اللهم أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذه الرحمة .

ثم نزل من مقامه ذلك .

وفى رواية :

فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن .. والذى كان يكنى به وأحب الخلق إليه.

فدخل على عبد الرحمن . فقال عبد الرحمن :

(الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

فقال أبوه :

(ستجدنى إن شاء اللّه من الصابرين) لقد خاض معاذ معارك كثيرة وخطيرة.. فلم ينل أعز أمانيه : الشهادة .

فتمنى ذلك المرض .. حتى يموت شهيدا

ثم كان هذا الحوار القرآنى .. حتى فى اللحظات العسيرة .

التى كان فيها كتاب اللّه تعالى معتصم الأجيال : تلتقى عليه ..

وتعوذ به فى الملمات.. إمساكا على أنفسها قبل أن تذوب فى معمعات الأحداث الهاجمة .

مثل من حياة الصديق :

وكانت أم المؤمنين عائشة – رضى اللّه عنها – تصلح بالقرآن ما أخذت الغفلة من عقول الناس :

جاءتها يوما سائلة .. فأعطتها حبة عنب واحدة .. من حبات كن فى يدها .

فلما قلّبتها السائلة فى يدها مستصغرة لها قالت لها أم المؤمنين : تأملى فيها كم ذرة ؟!! واللّه تعالى يقول : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾

وهكذا كانت عائشة أم المؤمين – رضى اللّه عنها – :

كانت تجود بما عندها ..

ثم تعطر ما تجود به .. ليقينها بأن الصدقة تقع فى يد اللّه تعالى قبل أن تقع فى يد الفقير ..

وفوق هذا كله .. حضور القرآن فى قلبها .. وعلى لسانها ليقول كلمة الحق فى موضوع النزاع ..

لقد كانت السائلة تعيش لحظة الضرورة .. فكان همها هو حجم الصدقة ..

ولكن عائشة – رضى اللّه عنها – ترتفع بها إلى أفق القرآن . وهو أعلى من كل ما يطمح إليه إنسان .. والذى وسع دائرة الخير .. ترغيبا للنفوس فى عمل الخير .. مهما كان حجم هذا الخير .

عائشة .. بنت الصديق :

لكن عائشة – رضى اللّه عنها – .. وفى موقف آخر .. كانت تعبر عن بنوتها.. وهى ترى أباها يحتضر .. فقالت مثلما يقول كل البشر المحزونين : عند احتضار أبى بكر – رضى اللّه عنه – . أنشدت عائشة – رضى اللّه عنها – :

لعمرك ما يغنى الثراء عنْ الفتى

إذا حشرجت يوماً [1] وضاق بها الصدر .

فنظر إليها معاتبا قائلا :

ليس كذلك ياأم المؤمنين

ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

لقد كانت هناك .. أم المؤمنين ..

---

(١) يقصد ساعة الغرغرة .

وهى الآن .. وللحظات . كانت عائشة بنت الصديق فكان تصرفها فيض طبيعة غلابة .. لم تستطيع أن تتجاهلها ..

ويذكرنا ذلك بما قالته فاطمة – رضى الله عنها – لما رأت أباها الرسول ﷺ.. فقالت : واكرباه .

فقال لها ﷺ :

لا كرب على أبيك بعد اليوم .

إنه نور القرآن بين يدى المؤمنين .. يضىء لهم الطريق فيرون الحق حقا .. والباطل باطلا .

فى الوقت الذى استدبر هذا النور أشقياء .. حرموا أنفسهم بالإعراض من بركته .

والأبناء عند حسن الظن بهم

فى العصر الذهبى للإسلام .. كان القرآن شغل الأسرة الشاغل وكان للآباء دورهم فى التوجيه . ثم كان للأبناء دورهم فى الالتزام .. بل قد يسبق الولد أباه سبقا يسعده .. حين يكون ولده رائده إلى الفضل :

كان لأبى يزيد البسطامى ولد ..

سأله يوما : ياأبت لما سمع قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ • قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : ١ ، ٢] لمن الخطاب فى الآية الكريمة ؟ فقال له أبوه :

للرسول الله ﷺ .

فلما سمع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ.. ﴾ [المزمل:٢٠] طمع الولد أن يكون كهذه الطائفة.. ولما نصحه أبوه بأنه صغير طرى العود.. صمم على أن يقوم الليل.. وانتصرت إرادة الصبى !

وتلك هى تكاليف تدبر القرآن .. واستبطان معانيه التى تطلق عندئذ شرارة فى النفوس فإذا بها فى الصحوة الكبرى .

وقد كان « للفضيل » رحمه الله ولد اسمه : علىّ . كان يصلى خلف أبيه الذى قرأ ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر : ١]. فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر : ٦] أغمى على الابن .. ولم يفق إلا فى منتصف الليل .

ولقد كان يسمى «قتيل القرآن».. من فرط إحساسه بمعانيه .. وتدبره لمراميه..

وقد مات قبل أبيه الذى شهد بأنه كان ولده .. لكنه فى نفس الوقت كان رائده !!

إنه إذا كان الشاعر يقول :

نعم الإله على العباد جليلة وأجلهن نجابة الأ ولاد

إذا قال الشاعر ذلك فقد كان صادقا .. لكن .. ما كانت نجابة الأولاد إ لا بالقرآن :

فهو أُولى النعم .. فى الترتيب

وأَولى النعم .. بالتعظيم .

ولكن .. بالقراءة ؟

لا .. بل بتعلمه .. وتدبره

نماذج وصور :

قال أسلم بن عبد الملك :

صحب رجل رجلاً شهرين .. فما رآه نائماً ليلا ولا نهارا .

فقال له :

مالى أراك لاتنام ؟ فقال :

إن عجائب القرآن أطرن نومى : فما أخرج من أعجوبة إلا وقعت فى أخرى ..

لقد غاص الرجل فى أعماقه . فمنحته الأعماق ما فيها من لؤلؤ ومرجان . بهر الرجل بل أطار النوم من عينه .

بينما يجلس السطحيون على شاطىء القرآن .. لم يكشفوا عن ساق ولم يشمروا عن ذراع . قابعين على الشاطئ .. قانعين بحمام الشمس .. والهواء .. ظانين بأن مجرد تلاوته كافية للحصول على ما فى الأعماق من أسرار .

إن هذا المؤمن الراشد .. واحد من قافلة الإيمان .. الذين صار القرآن فى حياتهم هدى .. وشفاء .. وبشرى .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢]

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

إن القرآن الكريم : بصائر .

بصائر .. لا بصيرة واحدة ..

وهى بصائر .. للناس جميعا ..

ولكن المنتفعين به هم الذين ارتفعوا إلى مستواه فعاشوا له .. لا به !

وقد منحتهم تلك الصحبة المباركة إحساسا عميقا يدرك به أحدهم أن القرآن كأنما نزل عليه هو شخصيا .. فكان هذا التجاوب وكان هذا العطاء .. وكانت هذه البصائر الكاشفة .

يقول الشيخ الغزالى تعليقا على قوله تعالى :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾ قال :

[عندما وصفهم اللّه تعالى بأولى الأيدى والأبصار ..

نتساءل :

ما معنى هذا الوصف ؟

هل معنى أولى الأيدى .. أن لهم أيديا ؟

هل معنى .. أولى الأبصار . أن لهم أبصارا؟

لكل الناس أيد .. ولكل الناس أبصار ..

وما يمدح اللّه سبحانه أحداً بأن له يدا وأن له بصرا.

إنما المقصود بأولى الأيدى والأبصار أنهم : أصحاب باع طويل .. أصحاب ذكاء حاد . أصحاب قدرة تمتد فى الدنيا .. لتزرع الخير . وتقدمه للخلق.

أصحاب بصر يرى الشرور من بعيد .. ويحسن حسمها . واجتثاثها من جذورها . وهذا معنى :

« أولى الأيدى والأبصار »] .

ولقد كان البلاغيون من أرباب هذه البصائر .. لما عكفوا على استكناه أسرار البلاغة القرآنية .. فعادوا إلينا من رحلة التدبر العميق بما يصلح اللّه تعالى به النفوس .. بما أراهم العلماء من أسرار التعبير ما يزيدهم بالقرآن إيمانا وعملا :

ولنأخذ من فن التضمين مثالاً لما نقول :

التضمين :

اختلف علماء البلاغة فى التضمين: هل هو فى الفعل أم فى الحرف المعدَّى به الفعل ؟.

والأصح أن التضمين فى الفعل .

مثال :

سمع اللَّه لمن حمده :

فسمع مضمَّن معنى استجاب .

ثم يقول تعالى :

﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾

فالرفث مضمَّن معنى : الإفضاء .

ومن إعجاز القرآن هنا :

أنه لو قال : «أفضى» لكان المقصود المباشرة فقط .

ولو عدى الرفث بنفسه أو مع – وهو جائز – لكان المقصود الكلام المتضمن لمعانى النكاح فقط ... دون الإفضاء ...

ومن أجل ذلك كانت تعدية الرفث .. بإلى .. متضمنه المعنيين :

الرفث

والإفضاء

القرآن فى حياة المسلم

كان القرآن فى حياة المسلم مستراد آماله ... يعرض عليه كل أعماله .. حتى يعرف موقعها منه .. موقناً أنه سائر على طريقه :

سمع الأحنف بن قيس قارئا يتلو قوله تعالى :

﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

فانتبه الرجل .. كأنه كان نائماً . وقال :

ذُكِرْتُ فى القرآن ؟

وعلى الفور يفتح المصحف ليرى نفسه على مرآة كتاب اللّه ...

فكان أولُ ما طالع قوله تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون ... ﴾ الآيات .

فقال :

اللهم إنى لست من هؤلاء !

ثم قلّب الصفحات فإذا هو أمام قوله تعالى :

﴿ ما سلككم فى سقر .. ﴾ [المدثر : ٤٢] .

فقال :

اللهم لا تجعلنى فى هؤلاء !!

فلما فتح المصحف بعد ذلك قرأ قوله تعالى :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] .

فقال :

اللهم اجعلنى من هؤلاء !

والذى يهمنا فى موقف الرجل أن قلبه معلق بالقرآن ... الذى يستفتيه . فى كل ما يعنيه .. وعلى ضوئه يأخذ سبيله مؤتمرا .. منتهيا .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز - رضى اللّه عنه - واحدا من رواد هذه المدرسة القرآنية .. حين جعل القرآن بين عينيه :

يسمع الآية الكريمة .. فلا يكتفى بسمعه .. وإنما يتأملها ببصيرته .. ثم يستقبل إيحاءاتها بكل جوارحه .

هذه الإيحاءات التى لم تكن فقط نسمات ندية تنعش روحه ..

وإنما كانت فوق ذلك واعظا مقيما يقض مضجعه .. ويحس بمسئوليته المباشرة عما تشير الآية إليه وتدل عليه هذه المسئولية التى تستغرق كل مشاعره . إلى الحد الذى يفيض دمعه ندما :

روى أنه - رضى اللّه عنه - كان كلما قرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ : ٢٠٧] كان يبكى وينشد :

نهارك يا مغرور : لهو وغفلة

وليلك نوم .. والردى لك لا زم

تُسر بما يفنى . وتفرح بالمنى .

كما سُرّ باللذات فى الموت حالم

وتسعى إلى ما سوف تكره غبه

كذلك فى الدنيا تعيش البهائم] [١] .

القرآن ضياء :

وهكذا .. كلما أعطى المؤمن للقرآن حقه من التدبر فإن الحق سبحانه وتعالى معه بالتوفيق .. وفى ساعة العسرة .. فإذا نزغه من الشيطان نزغ .. فتعكر الجو .. وتعذرت الرؤية فإنه يرسل إليه من القرآن ضياء كاشفا .. هاديا .

ذلك بأن معركة الصعود إلى القمة فى حاجة إلى المدد . والإمداد على قدر الاستعداد :

قال ميمون بن أبى شبيب :

جلست يوما أكتب كتابا فعرض لى شىء : إن أنا كتبته زين كتابى . وكنت قد كذبت.

وإن أنا تركته .. كان فى كتابى بعض القبح .. وكنت قد صدقت فقلت مرة : أكتبه .

ومرة : لا أكتبه .

ثم جمعت أمرى على تركه . فسمعت هاتفا يقول :

﴿ **يثبت الله الذين آمنوا ..** ﴾ .

ثم يواصل « ميمون » حديثه قائلا :

وهممت بصلاة الجمعة خلف الحجاج .

---

(١) الكشاف ج ٢ / ١٧١

وترددت :

أذهب .. أولا أذهب .

فسمعت مناديا من جانب المنبر يقرأ :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ.. ﴾ [الجمعة:٩] .

قال : فذهبت .

ولقد كان الإمام على – رضى اللّه عنه – يعيش القرآن .. فصار القرآن مستنده فى حكمه . ومرجعه فى جوابه الذى يفحم به سائله :

سئل – كرم اللّه وجهه – عن خلق رسول اللّه ﷺ . فقال للسائل :

هل تستطيع إحصاء نعم الله تعالى فى الحياة كلها ؟ قال : لا !

فقال له الإمام :

فكيف أستطيع أن أحصى خلقه ﷺ وقد قال الله عزّ وجلّ فيه :

[وإنك لعلى خلق عظيم]

بينما قال تعالى عن الدنيا :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء – ٧٧] .

فبهت الذى سأل !!

ولقد كانت الآية الكريمة تتلى .. على لسان قارئ رخيم الصوت .. فتهتز القوالب .. بينما القلوب غائبة هنال فى زحام الشهوات . . ولكن قلب المؤمن يستقبل نفس الآية .. فإذا بها تقلب حياته . رأسا على عقب .. مستدبرا كل ، ما يتنافس فيه المتنافسون من حطامها :

أكرم عامر بن ربيعة ضيفا له .

ثم ذهب الضيف إلى الرسول ﷺ .. فأعطاه واديا .

فأراد إكرام مضيفه – عامر – بإقطاعه بعض هذا الوادى ردًا لجميله فقال له عامر :

اسكت !! لا حاجة لى بهذا . فقد نزلت اليوم آية أنستنا الدنيا كلها :

[إن زلزلة الساعةِ شىء عظيم]

أهل القرآن :

وأولئكم هم أهل القرآن .. وخاصته :

وإنهم وحدهم .. الناس .. الذين يقودون الدينا .. بالدين .. والذين تسعد بهم المناصب ..

لقى نافع بن الحارث عمر بن الخطاب – رضى اللّه عنه – بعسفان . حين قدم للحج – وكان قدا ستعمله على مكة – « جعله واليا عليها » .

فقال له عمر :

من استعملت على أهل الوادى ؟ قال :

عبدالرحمن بن أبزى ؟ قال :

ومن ابن أبزى ؟ قال :

مولى من موالينا . فقال :

استعملت عليهم مولى ؟ ! فقال نافع : إنه قارىء لكتاب اللّه ..

عالم بالفرائض . فقال عمر :

أما إن نبيكم قال :

إن اللّه يرفع بهذا الكتاب قوما . ويضع آخرين .

ثم أقر ولاية عبد الرحمن .. إكراما لأهل القرآن

وكان أحد العباد يخرج إلى الصحراء وحيدا. فلما سئل قال :

لأرى الإبل كيف خلقت

وهكذا عاشوا للقرآن .

عاشوا به وله. فملأ حياتهم. وكانوا به راشد ين.. لأنهم كانوا لآياته متدبر ين..

وإذا كانوا يقولون : كثيرون .. لهم عقل .. وقليلون .. لهم قلب .. فإن المؤمن له عقل وقلب معا .. وبهما يحاول أن يغوص فى بحر القرآن .. ليستخرج ما هو أغلى من اللؤلؤ والمرجان .

وهذا رجل لم يكتف بالرجوع إلى أمهات الكتب سعيا وراء ، المعانى .. وإنما يحاول أن يستبطن الآية لا بعقله فقط .. وإنما ببصره ، وسمعه وكل مداركه .

وإذا كان هناك من لا يرى فى السماء إلا زرقتها.. ومن الأرض إلا خضرتها.. فإن المؤمنين يرون بالإلهام والتوفيق ما وراء القشرة البادية .. فاستخرجوا من الكنوز ما ضبط وقع خطواتهم ثم جددوا بها ما أبلت الأيام من حياتهم .

قال الإمام على – رضى الله عنه – لم أحسن إلى أحد .. ولم أسئ إلى أحد ! .

فلما تعجب السامعون قائلين : وكيف ؟ قال الإمام : إن الله تعالى يقول :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] .

فالإحسان والإساءته كلاهما يعود على الإنسان نفسه قبل أن يعود إلى الآخرين.. والذين يطلقون الرصاص المحرم دوليا على طفل . برىء .. أعزل . إنهم يميتون أنفسهم قبل أن يميتوا غيرهم .

وهكذا تكون معايشة الآيات بكل طاقات الإدراك فى كيان الإنسان إلى الحد الذى يستغرق فيها .. فيخرج من صخب الدنيا فاقدا إحساسه بها .. لأن القرآن لم يبق له علاقة بهذه الدنيا .

صعد داود الطائى سطح داره يوما فى ليلة قمراء .

ولم يفعل ذلك .. ليتغنى بجمال القمر .. وإنما كان سارحًا مع آى القرآن .. والتى تدور به فوق السطح المكشوف .

وفجاه .. يسقط الرجل فى فناء دار جاره .. الذى جاء بالسكين يحسبه سارقا .. فبادره داود قائلا : هل سقطت بفناء دارك ؟ ! ولم يزد على ذلك حرفا .

إن الإنسان .. قد يعيش لحظته الحاضرة القاصرة .. مستغرقا فيها .

ومن ثم .. تعزله الغفلة عن واقعه .. فلا يتجاوز الحيز الضيق . حتى يتسع مدى الرؤية .. ويمتد إلى ماوراء الحاضر الماثل .. إلى ما بعد نهاية الأمور .. إلى أدبارها وعواقبها ..

من أجل ذلك ينعى تعالى على الغافلين قائلا :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

إن الآية الكريمة تنكر على الناس غفلتهم عما فى القرآن من آيات مضمومة على ما يصلح به حالهم ومآلهم .

لقد قصروا همهم على حفظه .. وفقط .. وشغلتهم الهموم الصغيرة عن الهموم الكبيرة التى لا تفصح عن نفسها إلا لمن دفع ثمنها تدبرا وتفكرا .. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به .. فتدبروا الآيات .

وغاصوا فى بحورها العميقة .. فسوف تمنحهم الآيات لؤلؤا ومرجانا ولحماً طريا !

ومن هؤلاء الغواصين ذلك القائل :

لا تقل سيجىء الحق وسيزهق الباطل ..

ولكن قل :

جاء الحق .. جاء فعلا .

وزهق الباطل .. زهق فعلا .

إنه غير موجود .. وإن كانت له دول وإعلام .. لأنه لا يملك مقومات البقاء .

إنه مجرد فقاعة فى المستنقع الآسن .. وسوف تطير هباء ..

إنه قطار يملأ الآسماع بصوته المنكر .. لكنه قطار بلا سائق .. وبلاهدف ..

وغدا سوف تتكشف الرغوة العائمة ..

والويل له يومئذ من الحق الذى أسند ظهره للحائط يوما .. لكنه لم يستسلم .. وإنما كان يجميع قواه .. لينقض عليه فإذا هو زاهق .. سوف يسدد له الحق ضربة قاتلة ..

ضربة .. لن تصيبه فى قدمه .. ولا فى يده ..

بل فى دماغه .. ليخر صريعا :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

لقد قلنا إن المؤمن يستقبل الآيات : ثم يحفظها .. ثم يحافظ عليها ومن محافظته عليها أن يعطيها حقها من التأمل .. فكانت تنشىء فى كيانه معانى نجعل منه بشرا سويا..

قد يتأمل قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعلَمُ بِكُم إِذ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرضِ وَإِذ أَنتُم أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم﴾ [النجم : ٣٢] .

ثم يستمع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وعندئذ .. يتلقى واردات الهدى :

إن الآية الأولى تنشىء فى كيانه انفعال الخوف ..

بينما الثانية تفتح أمامه باب الرجاء ..

وهنا يطير بجناحين .. ويسعى على قدمين ..فلا يستبدبه خوف قد يشل قـواه .. ولا يهدهده رجاء ينسيه واجبه .

وإنما هو الخوف الذى يرطبه الأمل فى رحمة اللّه ..

وهو فى رجائه على حذر أن تزل قدم بعد ثبوتها : كان أحد الصالحين يقول :

لو أعلم أن اللّه تعالى تقبل منى مثقال ذرة .. وما وسعتنى الأرض ؟! .

وأنكر عليه السابحون فوق الموج ذلك قائلين : ويلك ! .. وماذا تفيدك الذرة ؟!

ولكن الرجل الذى تدبر القرآن يرد عليهم إنكارهم قائلا :

يقول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

فإذا تقّبل منى ذرة .. عرفت عندئذ أننى من المتقين ! ويرحم اللّه أبا الدرداء :

لقد عاش حياته فى قلق دائم .. وخوف موصول . كلما تذكر هذا السـؤال الـذى سوف يوجّه إليه بشأن موقفه من القرآن الكريم .. وهو :

هل علمت .. أم جهلت .

وسوف يكون الجواب : علمت .

وعندئذ .. سوف تأخذ كل آية بخناقه :

تقول له آية الأمر : هل ائتمرت ؟

وتقول له آية النهى : هل انتهيت ؟.

وليت شعرى .. هل يبقى لدى مؤمن هذا شأنه وقت للعصيان ..

بينما تحتشد فى وعيه آيات القرآن كأنها الغريم المستقصى ..

تطالبه بحقها .. وكلما تحلل أمام آية واجهته أخرى ؟! .

* * * * *

القرآن الكريم هو الحياة

وبدونه لا تكون حياة :

يقول تعالى :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّـاسِ كَمَن مَّثَلُـهُ فِـي الظُّلُمَـاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام - ١٢٢] .

ويقول تعالى .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد - ٢٨] .

والتعبير بقوله تعالى [يمشى به] و [تمشون به] يدل على أن المشى بـه فـى الدنيا قبل الآخرة ..

وإذا فهو دستورنا الخالد .. ولا دستور سواه

وإذا كان القرآن هو النور .. فلا هادى إلا هو .

الا إن روح الأمة : القرآن : [وكذلك أوحينا إليك روحا ..] .

ولقد عاش به سلفنا الصالح .. ففا زوا وفرضوا احترامهم على الحياة ..

ولو أن كل قرية خلت بالقرآن من الرذائل الموجودة الآن .. ثم دخل هذه القريـة كفار .. لآمنوا بمشاهدة هذه النماذج الطيبة . ولو لم تكن هناك خطب ولا مواعظ .

من صور التدبر

يقول أحد العارفين :

فى قوله تعالى ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ .

تقول الورقة : سبحان من جعلنى جمالا . ووقاية . وحماية للبيئة .

وتقول الثمرة :

سبحان من جعلنى عظما ولحما . (والعظم : النواة)

ويقول العالم :

سبحان من فتح أفهامى . وسدد أحكامى.

ويقول الجبل :

سبحان من أرسانى .

ويقول البحر سبحان من أجرانى .

القرآن
يصوغ وجدان المسلم

قال طالب العلم لأستاذه يوما : سؤال بسيط يامولانا

فقال له الأستاذ :

كيف يكون هناك بسيط فى العلم .. والحق سبحانه وتعالى يقول :﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل - ٥] .

وهكذا كان أشياخنا : يأخذون حياتهم مأخذالجد الناشىء عن « حضور » القرآن فى وعيهم .

كان الأوزاعى فى شبابه كثير المزاح والضحك ..

فلما تقدم به العمر قال :

يكفى التبسم ! فلما بلغ من الكبر عتبا عدا الضحك من الكبائر !! وهكذا . كانت نفسه كبيرة .. تتعب فى مرادها جسمه ..

واستعد لليوم الموعود .. بزاد من الجد . ومن أدبه أنه كان لا يسهر ليلة الجمعة استعدادا لصلاة الجمعة .. من نهاية يوم الخميس :

ذلك بأنه قدوة قرآنية وللقدوة تكاليفها .. ولها كذلك ثمراتها : لما أتى عمر - رضى اللّه عنه - بتاج كسرى أنو شروان قال : إن الذى أدى هذا .. لأمين .

فقال له رجل : يا أمير المؤمنين: أنت أمين اللّه.. يؤدون إليك ما أديت إلى اللّه..

ولو رتعت .. لرتعوا ! .

ولله أمة ماضيها حى .. وحاضرها يحتضر !! بعدما كانت حية بالقرآن الذى كان سلفنا الصالح يحافظون عليه .. بعد حفظه !

من صور التأثر بالقرآن :

سافر رجل إلى قوم من البدو . فنزل عند رجل فاضل منهم . فرأى أنهم لا يهتمون بحفظ أموالهم .. حتى رآهم يلقون دراهمهم فى زوايا البيت بلا تحفظ .

فقال الضيف لصاحب المنزل :

ألا تخافون من السرقة مع عدم حرز أموالكم ؟

فقال المضيف : لا تقع السرقة فينا !

قال المضيف :

إننا نقفل على دراهمنا أقفالا . وهى مع ذلك كثيرا ما تسرق منا .

فقال المضيف :

إننا نقطع يدا السارق كما أمرا اللّه تعالى .

فقال الضيف : أظن أن كثيرين منكم محرومون من إحدى يديهم ؟

فقال المضيف :

إنى بلغت الخمسين من العمر . وما رأيت فى عمرى إلا قطع يد واحدة .

فقال الضيف:

فيا للعجب : عندنا يحبس فى كل يوم كثيرون .. وهو لا يؤثر معشار هذا التأثير .

فقال المضيف :

لقد أهملتم أمرا عظيما . وغفلتم عن سر عجيب وهو : أن السارق منا إذا أراد سرقة . ومد يده لأخذ شيء .. تذكر حكم إجراء الحد الربانى .. المربوط بالسلسلة العرشية واستمع إلى نداء مِنْ بعد من جانب قلبه . وكأنه يسمع . ويحس بأذن قلبه . بخاصية الإيمان .. صدى الكلام الأزلى النازل من فوق العرش . والناعى على يد السارق بقوله تعالى : [والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما] فيهيج هذا الاعتقاد معنوياته فتهتز حياته العلوية وتتنادى قواه المعنوية من أطراف الروح وأعماق الوجدان فتهاجمه على ميلان السرقة .. فيتقلص ذلك الميلان .. وينقطع .

وما من ميلان يستطيع أن يخالط نفسه .. فى مقابلة هذا الزاجر العلوى والوازع الوجدانى .

لأن الأفعال تصدر عن تمايلات القلب .. وهى تنبعث من إحساسات الروح .. والروح تهتز بنور الإيمان .

إن إجراء الحد للامتثال .. يتأثر به الروح والعقل والوجدان .

بخلاف صنيعكم :

إن أحدكم إذا أراد السرقة . فإنما يتأثر من جانب وهمه فقط : لأنه يتوهم عتاب الناس لو علموا به .

وحبس الحكومة لو تبين عليه .

وبذا إنما تنفعل قوته الواهمة انفعالا سطحيا فقط .

وبالجملة : إن العدالة : إنما تكون عدالة محضة .. إذا أجريت من حيث إن للّـه أمر بها .

(لأن هذه الحيثية أنفذ حكما . وأتم تأثيرا . وأعم فائدة) [1] .

وهكذا كانت النفوس « مسكونة » بالقرآن الذى شكل بُنيتها ..

وصقل شخصيتها .. فلم تعد ترى إلا به .. ولا تعمل إلا على مقتضاه.

وقد كان هناك من حراس القرآن « عبد اللّه بن عباس » - رضى اللّه عنه - .. والذى كان من رأيه ضبط خطى الساعين إلى القرآن حتى لا يكتفوا بمجرد تلاوته مسرعين .

لأن الناس إذا محضوا همتهم لمجرد قراءته . تنافسوا فيها . لتصير نسبة الحفظ غاية السباق ..

ثم لم يلتفتوا إلى فهمه وتدبره . فتنقص التقوى فى القلب ويكثر التطاول فى اللسان .

ولقد كان لهذه الحراسة المشددة آثارها .. فبقى أثر القرآن سارى المفعول .. فى الوقت الذى تتخبط أمم فى التيه لما استدبرت تعاليمه .

هدف المسلم

أما بعد

فيقول الأدباء :

بعض الناس يركبون قطارا بلا سائق .. وبلا محطات يقف عندها .. وأولئكم هم العابثون .. الخاسرون ..

ولكن الإسلام يحدد للمسلم هدفه .. ثم يعينه على أدائه راضيا .. ليشمر عن ذراع .. ماضيا على سواء الصراط ..

---

(١) سعيد النورسى - من رسائل النور .

روى ابن أبى حاتم عن مكحول قال :

كنا أجنة فى بطون أمهاتنا .. فسقط منا من سقط .. وكنا فيمن بقى . ثم كنا مراضع : فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بقى .

ثم صرنا يفاعة :

فهلك منا من هلك .. وكنا فيمن بقى .

ثم صرنا شبابا :

فهلك منا من هلك .. وكنا فيمن بقى .

ثم صرنا شيوخا .. لا أبالك .. فماذا بعد هذا تنتظر ؟)

ونذكر هنا ما قاله عمر بن عبد العزيز .. والذى نستكمل معه الرحلة إلى الغاية الكبرى :

لقد كانت أمنيتة الزواج من ابنة عمه : فاطمة .. فتزوجها .. ثم رام الولاية .. فنالها ..

ثم كانت الخلافة خاتمة المطاف .. فى رحلة الدنيا ..

ولم تبق إلا الغاية الكبرى وهى : مغفرة من اللّه

ثم جنة عرضها السموات والارض

منطلقا فى ذلك من قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ .

القرآن

فى بؤرة الشعور

كان المرحوم محمد فريد وجدى يكتب مقالاته بقلم عادى .. فإذا أراد كتابة آية كريمة .. كتبها بقلم معين .. تسطر به الآيات الكريمة بخاصة .. ويكتبها أيضا بمداد مختلف.

إنه بعض الجميل نقدمه للقرآن الكريم ..

حقا : إنه لكريم :

فالحرف فيه بعشر حسنات ..

ثم هو : مجيد شريف .. ليس فيه لفظ ناب : تسمعه الجارية بلا حرج لو قال « وبا شروهن » ثم إنه حكيم :

يضع كل شيء فى موضعه . ومن رحمته .. شَدَّ الانتباه إليه :

فعندما تقول :

ألف .. لام .. ميم .. التفت قلبك ..

وإذا التفت .. دخل النور ذلك القلب .. وما زلت أذكر ذلك الموقف المثير :

عندما هب الجندى التركى من نومه مذعورا لما وجد أن قدمه كانت فى اتجاه المصحف داخل الكوة .. ثم رفع سلاحه مغضبا .. يزيد أن يفعل شيئا يكفر به عن سيئته :

وهذا الرجل لم تمنعه عسكريته الصارمة من أن يرتبط بالقرآن الذى لا معنى لعسكريته إلا به . ولقد كان عقبه بن عامر :

أميرا على مصر .

وقائدا عسكريا .

ثم قارئا للقرآن .

أديبا .. وشاعرا

ولقد تنافس الأدباء فى أخذ أولادهم بالقرآن : حفظا .. والتزاما بآدابه وذلك بعدما سمعوا من جزاء حفظ القرآن والعناية به كما بشّرت بذلك السنة المطهرة .

والتى تصور والدى حافظ القرآن يُلبسان حُلة :

أضوأ من الثريا ؟ .. لا ..

من النجم ؟ .. لا ..

من القمر ؟ .. لا ..

من الشمس ؟ .. لا ..

وإنما أضوأ من ذلك كله .

وهذا جزاء من كان سببا فى حفظ غيره القرآن ..

فكم يكون الجزاء لمن حفظ القرآن .. من علمه .. وعلّمه ؟

فوائد تدبر القرآن

لقد كان للقرآن الكريم « حضور » مكثف فى عقل المؤمن وقلبه .. وكان من أعائه :

اللهم اخلط القرآن بعظمى ولحمى ودمى .. وحرك به لسانى .. ونشط به جوارحى حتى لا أقول إلا صوابا .. ولا أعمل إلا صالحا فكان بهذا « الحضور » الدائم:

يصحح المفاهيم . ويوضح الطريق .. ويمكن للحق . يحكم مسير الحياة ويقطع الطريق على كل خاطرة .

أما نحن اليوم :

فقد أفسد الشيطان تأويله .. بعد ما عجز عن إفساد تنزيله ! :

وإذا كنا نبدأ به يومنا .. ونختمه .. فإن ما بين البداية والختام يفسد الأخلاق ..

ونحن مطالبون أن نجدد صلتنا به .. لتعود إلينا الروح .. روح المقاومة .. مقاومة اليهود الغاشمين الغادرين :

إن تكرار ذكر القرآن فى سورة الإسراء إحدى عشرة مرة – كما قيل – هو فى الواقع خطاب شديد اللهجة إلى المسلمين اليوم وكأنما يقول لهم : لن تنتصروا على اليهود ولن تسودوا كما ساد الأوائل إلا بهذا القرآن الذى هو الروح .. وهو الحق . وهو عدة النصر لمن كان يبتغى إلى النصر سبيلا .

والخطوة الأولى على الطريق أن نتدبره ..

وفى تدبره عون على وعثاء الطريق.. وتزويد بالطاقة الواصلة بنا إلى ما نريد.

يقول ابن القيم (١) فى بيان فوائد تدبر القرآن :

(التأمل فى القرآن هو :

تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله .. لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر)

واقرأ قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩] .

---

(١) مدارج السالكين ج١/٤٨٥ .

وقوله تعالى :

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد : ٢٤] .

قوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون :٦٨].

ثم يقول:

[إن آياته تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذا فيرها :

علـى طرقاتهمـا وأسـبابهما . وغاياتهمـا . وثمراتهمـا تثبـت فـى قلبـه الإيمــان . وتوطد أركانه وتشيد بنيانه .

وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار وتحضره بين الأمم . وتريه أيام اللّـه فيهم . وتبصره مواقع العبرة وتشهده عدل اللّه وفضله .

وبالجملة : تعرفـه الـرب المدعـو إليـه . وطريقـة الوصـول إليـه . ومـا لـه مـن الكرامة إذا قدم عليه .

وثلاثة أخرى هى : مـا يدعـو إليـه الشـيطان . والطريقـة الموصلـة إليـه . ومـا للمستجيب لدعوته من عذاب .

تريه الآخرة حتى كأنه فيها . تغيبه عن الدنيا .. حتى كأنه ليس فيها . ولا تزال معانية تُنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل .

وتحذره بوعيده من العذاب الوبيل .

وتحثه على التخفف للقاء اليوم الثقيل .

وتهديه فى ظلم الآراء إلى سواء السبيل.

وكلما ونى فى سيره .. تقدم الركب .. وفاته الدليل فاللحاق اللحاق .. والرحيـل الرحيل .

وتحدو به . وتسير أمامه سير الدليل .

وكلما خرج عليه كمين للعدو و قاطع من قطاع الطرق نادته : الحذر الحـذر .. واعتصم باللّه .

من كان حارسه الكتاب ودرعه ..

لم يخش من طعن العدو ووخزه

لا تخش من شبهاتهم واحمل إذا

ما قابلتك .. بنصره وبعزه

واللّه ماهاب امرؤ شبهاتهم

إلا لضعف القلب منه وعجزه

ولقد كان سلفنا .. الصالح أعزاء بالقرآن .. فلم يكونوا يتكسبون **به كما قد يحدث اليوم :**

دخل عثمان على ابن مسعود – رضى اللّه عنهما – وكان قد بلغه عنه شيء فقطع عنه معونته – فقال عثمان لابن مسعود .

هل أرد إليك المعونة ؟

فقال عبد اللّه :

لم تردها وأنا صحيح .. فهل تردها وأنا أحتضر ؟!

فقال له :

تكن لبناتك من بعدك !

فقال ابن مسعود :

لقد علمتهن سورة الواقعة .. ومن قرأها وحافظ عليها لم يلحقه فقر أبدا !!

وهكذا .. اقتربوا من القرآن فعاشوه .. فمنحهم الهدى .. جعل لهم بصيرة تكشف ما غم على كثير من الناس الذين لم يتجاوز عقائرهم . ففاتهم بعدم تدبره خير كثير .

أما ابن مسعود فقد أعطى القرآن كل مداركه . فأعطاه القرآن ما جعله مطمئن الفؤاد رضى النفس .

وكان من مدرسته عطاء – رضى اللّه عنه – والذى قال :

من قال ربنا ثلاث مرات . نظر اللّه إليه ..

فلما سئل الحسن البصرى فى ذلك قال : نعم .. وذلك فى القرآن .

١ – ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِياً.. ﴾ [آل عمران:١٩٣] ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ ﴾ [آل عمران ١٩٣].

٣ – ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا ﴾ [آل عمران : ١٩٤] .

لقد فهم الحسن ما رمى إليه عطاء .. لأنه كان يتعامل مع القرآن ببصيرته التى كشفت له ما خفى على المتسرعين !!

من شقشقة الأوزان
إلى نور القرآن

تمهيد

فى التنويه بالشعر والشعراء يقول الباحثون :

ما يقول الناثر فى صفحة .. يقوله الشاعر فى بيت .

قال الجوهرى :

لواء الدين شُدّ بلا جهاد

وباب العلم سُدَّ بلا اجتهاد

ففضيلة الدين : الجهاد .

وفضيلة العلم : الاجتهاد .

[إن الشعر عدسة :

تستقبل ضوء الشمس .. ثم تركزها على نقطة واحدة .. فتشتعل الرؤى والأفكار والصور . وتكشف ما لا يكشفه الإطناب] .

وإذا خدم الشعر المعانى السامية فهو حر ..

وإلا .. فهو عُرّ أى [قذر]

طالما كان الشعر سلاحا يدافع به الإنسان عن نفسه: صوّب الفضلُ بن يحيى سهما إلى أعرابى قائلا : رُدَّ سهمى ببيت من الشعر . فقال :

لَقَوْسُك قوسُ العزّ تحمى به ظهرى

وسهمك سهم العز : ترمى به فقرى !

ومع هذا .. فقد كان هناك شعراء تدبروا القرآن .. وتذوقوا معانية .. فهجروا الشعر وآثروا أن يعيشوا فى حمى القرآن ومنهم : « لبيد بن ربيعة »

وهو صحابى .. وكنيته أبو عقيل .

بعد أن دخل فى الإسلام . عزم على أن يكف عن الشعر . حتى لا يكون فيمن قال اللّه تعالى فيهم [والشعراء يتبعهم الغاوون] مكتفيا بالقرآن الكريم . وقال :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الحى .. ما اللّه صانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما البر إلا مضمرات من التقى وما المال إلا عاريات ودائع

وكان من سخائه : أنه نذر على نفسه ألا تهب الصبا إلا ونحر وأطعم .

أى أنه لم يكتف بعطاء قلبه .. حتى عززه بعطاء جيبه !

ولكنه افتقر .. فسار إلى الكوفة .

وسمع حاكم الكوفة بفقره . وكان يعلم بحاله ونذره وكره ألا يفى بنذره .

فخطب الناس فى مسجد الكوفة قائلا : إنكم قد عرفتم نذر « أبى عقيل » فأعينوا أخاكم . ثم نزل وتسابق الناس إليه .

وبعث إليه الأمير نفسه بمائة ناقة .. وكتب إليه يقول :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هبت رياح أبى عقيل
وضىء الوجه .. أبيض .. عامرى طويل الباع كالسيف الصقيل

وحدث أن طلب « لبيد » من ابنته أن ترد عليه . فقالت :

إذا هبت رياح أبى عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف . أصيب .. عبشميا أعان على مروءته لبيدا
أبا وهب : جزاك اللّه خيرا نحرناها . وأطعمنا الثريدا
فعد .. إن الكريم له معاد وظنى يا ابن أروى .. أن تعودا

ولقد استحسن « لبيد » ما قالته ابنته .. لكنه كره منها أن تستزيد الوليد . فقالت:

يا أبت .. واللّه ما استزدته إلا أنه ملك .. ولو كان من السوقة ما استزدته !

وقد نسى الوليد أن ابنته ما طلبت المزيد إلا لتطعم به المحاويج . ليعود للبيت الكريم سالف مجده .

ولقد كان أجمل من شعرها .. « شعورها » بالكرامة .

وبعد :

فقد قال لبيد معتزا بالإسلام .. وبالقرآن :

الحمد للّه الذى لم يأتنى أجلى
حتى لبست من الإسلام سربالا

وهكذا .. شفى اللّه تعالى بالقرآن صدر لبيد .. ونزلت عليه بركة القرآن وعلى أهل داره .

القرآن دائما شفاء ورحمة ..

ولكن العيب فينا نحن ..

نحن الذين نصر على أن نظل مرضى ..

إنك تحس بالمرض .. فتذهب إلى الطبيب الذى يصف لك الدواء ..

فإذا لم تشتر الدواء .. فأنت أحمق .

وإذا كان ألم النفس أشد .. فأنت أشد حمقا لو أهملت العلاج ..

فإذا كان الطبيب هو اللّه سبحانه .. فأنت من الحمق فى منتهاة ولأن صلتنا بالقرآن واهية .. فنحن لا نخف إلى دواء قلوبنا بالقرآن :

وقد تعجب الأبرار من هذا الأمر فقال قائلهم : يُطب للمرضى بالقرآن

عجبت لمن خاف قوما كيف لا يقول :

حسبنا الله ونعم الوكيل؟ .

والله تعالى يقول :

الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يقول : وأفوض أمرى إلى اللّه ؟ واللّه تعالى يقول على لسان موسى :

﴿ وأفوض أمرى إلى اللّه إن اللّه بصير بالعباد فوقاه اللّه سيئات ما مكروا ﴾

وعجبت لمن أصابه هم وكرب كيف لا يقول :

لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ؟ .

والله تعالى يقول :

﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ .

إن ارتباطنا بالقرآن ضعيف .. ومن ثم لا نحس بما فيه من شفاء ورحمة .

مع أنه الشفاء والرحمة .. والمنقذ من كل هموم الدنيا .

المسلمون اليوم

ولقد صار أمر المسلمين اليوم على مايقول الراغب الأصفهانى [١] :

ينطقون .. ولكن عن هوى .

ويتعلمون .. ما يضرهم ولا ينفعهم

يعلمون .. ظاهرا من الحياة الدنيا

يعبدون .. ما لا ينفعهم .. ويؤمنون بالجبت والطاغوت .

وينفقون .. وهم كارهون ..

ويقومون إلى الصلاة .. وهم كسالى

وإذا ذكروا لا يذكرون !

أجل .. لقد خرج المسلمون من البيت .. من القرآن .. فصاروا غرباء فى أوطانهم .. لقد تغيرت ملامحهم .. بل تغيرت وجهتهم يوم أن هجروا مستقرهم الآمن .. وآن للغريب أن يعود إلى وطنه :

لقد جددت البشرية كل شيء فى حياتها .. فانتقلت :

من الحجر .. إلى الذرة

ومن الجمل .. إلى سفينة الفضاء

ومن الشموع .. إلى ثريات الكهرباء

ومع ذلك فإن حاجتها لشديدة إلى هداية القرآن ..

وإلا .. فإن الرياح لا تلام إذا اقتلعت الشجرة النخرة ..

ولا تلام الذئاب إذا أكلت من الغنم الآبقة القاصية !

أنا لا ألوم المستبد إذا تجبر أو تعدى

فسبيله أن يستبد وشأننا أن نستعد !

المستبد

يستعد !

وللأسف الشديد فإن خصومنا هم الذين يستعدون !

---

(١) تفضيل النشأتين ، وتحصيل السعادتين بتصرف .

ولا يستعدون فقط بالسلاح والعتاد .. ولكن بحسن التعامل مع القرآن .. واستخراج كنوزه ! :

تأمل المستشرقون قوله تعالى فى سورة الحجر فى معرض الحديث عن قرى قوم لوط :

ولما وجدوا لفظ « المتوسمين » غير مكرر فى القرآن .. دلهم تفرده على أهمية البقعة التى تتحدث الأيات عنها .. والتى ظهر فيها المخبوء من باطن الأرض بعد أن صار عاليها سافلها .

فلم يكتفوا بالتأمل ..

ولكنهم « توسموا » .. وبكل ما أوتوا من علم ومقدره .. وكان أن حطت القوافل العلمية رحالها هناك .. واستخرجت من البقعة ما صار عنصرا فى تكوين أسلحتهم الفتاكة . والتى يصبونها إلى أجسامنا نحن المسلمين !

وعن هذه الحركة الاستعمارية يقول الشيخ محمد الغزالى :

ولكنى واثق من أن هذه المحنة سنجلى كما انجلت محن أخرى فى أيام مضت . على أن انجلاء المحن لا يشبه انقشاع السحب : تترقبه ونحن مكتوفو الأيدى .. كلا. لابد من عمل جاد . وسعى لاغب .

أما مع النقائص الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيرا .

إن أعطابا نفسية وعقلية أصابت كيانهم بشلل لا تعرفه أمم أخرى . وألحقت برسالتهم مهانة كبيرة . أول ذلك وأنا أقرأ كلمات للمهندس ماهر أباظة وزير الكهرباء جاء فيها :

إن قطاع الطاقة ظل يبحث منذ خمس عشرة سنة عن سر صناعة مادة معينة فى الغازات الكهربائية دون جدوى فقد رفضت الشركات الأجنبية – نحو سبع شركات– أن تعطى أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصدر الوحيد لها . وحتى تبيعها وفق شروطها .

قال الوزير : ثم تطوع العلماء الصينيون بإخبارنا أن المواد التى تصنع منها هذه الغازات موجودة فى تربتنا . وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشدونا إليها فى بلادنا!! . علماء الصين درسوا طبيعة أرضنا فى البحر المتوسط !

إننى لم أدهش للخبر لأنى لما ذهبت إلى « نوكشوط » عاصمة موريتانيا .

عرفت أن المياه التى تغذى العاصمة تأتى من آبار جوفية اكتشفها الصينيون .

وقاموا بمد أنابيبها إلينا .

لقد عرفوا وهم على المحيط الهادى خيرات أرضنا على المحيط الأطلسى .

قلت لنفسى : إننى أعرض الدعوة الإسلامية كلاما ..(وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملا .. وخامرنى حزن عميق) .

ولكن الأمل فى اللّه وطيد أن يهيئ لأمتنا من أمرها رشدا .

البيت المهجور !

لقد كان المسلم من القرآن فى بيته العامر : آمنا فى سربه .. معافى فى بدنه ميسرا له فى رزقه ..

ولكنه أدار ظهره لقيم القرآن .. ويوشك أن يخرج من بيت العزة .. إلى حيث قيدته من الدنيا أغلال . ومن النفس أطماع ..

يقول الحق سبحانه :

(وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا)

وإذا دخل المشركون فى الهجر دخولا أوليا فإن المسلمين يوشكون يندرجون تحت مظلة الهجران بما أحدثوا من أمور صرفتهم عن القرآن :

يقول ابن كثير :

(يقول تعالى مخبرا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : « يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » : وذلك أن المشركين كانوا لايصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] الآية .. فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره حتى لا يسمعونه.. فهذا من هجرانه [١].

وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه وترك تدبره وتفهمه من هجرانه وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه . والعدل عنه إلى غيره من شعر أو قول أوغناء أو لهو أو كلام أو طريقة فأخوذه من غيره .. منه هجرانه) .

---

(١) اللطف فى الوعظ ٦٥ .

وقد بين ابن القيم فى محاسن التأويل – ج٢/٥٧٥ – مراتب الهجران فى قوله : هجران القرآن أنواع :

الأول : هجر سماعه والإيمان به .

والثانى : هجر العمل به . وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه.

والرابع : هجر تدبره وتفهم معانيه .

والخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وكل هذا داخل فى قوله تعالى : ﴿ **إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾ وإن كان بعض الهجران أهون من بعض .

أجل .. لقد خرج المسلمون اليوم من بيتهم . القرآن .. وهجروه إلى غيره .. فتحاكموا إلى قوانين الأرض .. فتحكمت فيهم تقاليد غريبة عنهم .. وتفشت فيهم العلل.. ولو صحا فيهم الضمير اليوم فعرضوا أنفسهم على مرآة القرآن فماذا يجدون؟

تغيرت الملامح .. بل تغيرت الوجوه .. فازدادت مسافة الخلف . وأصيبت مطية العمر بالهزال كلما ابتعدنا عن القرآن .

ورحم الله ابن الجوزى حين قال :

(يا من مطية عمره قد أنضاها الحرص ..

هلا كففتها قليلا بزمام القناعة . فرب جد أعطب ورب أكلة تمنع أكلات .

وكثرة الماء شرق أو غرق !) [1] .

قفزة فى الظلام !

ومن صور هجرانه ما يراه المسلم اليوم .. وفى مملكة بعض القراء .. الذين لا يتجاوز القرآن ألسنتهم !

وما زلت أذكر هذا المشهد الغريب :

قارئ يتلو القرآن أمام حشد من الناس :

---

(١) اللطف فى الوعظ ٦٥ .

وكأنما كان هناك اتفاق بين القارئ وجمهوره :

أن يختار هو من الأنغام ما يشجي الآذان .. وإن خالف أدب القرآن .. وأن يبادله الجمهور وفاء بوفاء - ! - فيمطره إعجابا .. وصخبا .. يفوق به أقرانه .. من صناع المواقف ..وطلاب الصيت .. وعندما وصل القارئ إلى قوله تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (١) .

وصل التجاوب إلى قمته غلوا في تلحين القرآن وصخبا يخرق الآذان :

وكان الظن بأهل القرآن أن يكونوا عند مستوى الآية .. فيستقبلوها بأفئدة تصغي بكل طاقة السمع فيها إلى ما تحمله الآية من نذير يفرض على الناس البكاء . أو التباكي .. على الأقل !

وضاع الدرس المستفاد بين مشاعر الزهو يخفق بها قلب الشيخ .. وصياح المريدين الراغبين فيمزيد من المتعة الحرام ..

وأغمضت عيني في أطواء هذا الحماس الدموي .. وكنت كما قال الشاعر :

فكن .. كأنك لم تسمع ولم يقل

وعشت مع الآية الكريمة .. ينكر بها الحق سبحانه على قوم أنهم لم يتدبروا القرآن .. ولو تدبروه لما حدثت هذه الضجة المفتعلة !

ياقوم :

لقد نزل القرآن الكريم في لحظات من الجد والصدق والفداء .. أعاد اللّه تعالى فيها صنع الإنسان من جديد .. ونحن مطالبون بتذكرهذه المواقف تذكرا يزيدنا إيمانا بدوره في صياغة الحياة على أمثل طريقة .. ومن شأن القلوب الموصولة بالقرآن أن نتدبر آياته على نحو نتشرب ما فيها من معان ..

ونتلذذ بما تحمل من عطر هذه الذكريات العزاز من تاريخنا العظيم ..

بحيث يظهر أثر ذلك كله على المسلم خشوعا .. وخضوعا ..

أما أن تلبس أفخر الثياب .. وتركب الخيل المسومة .. وأنت في الطريق إلى حيث تقرأ القرآن .. أما أن تطأ بسنابك خيلك رزق اليتامى .. والأرامل فلا تتحرك

---

(١) اللطف في الوعظ ٦٥ .

من عرشك إلا إذا جردتهم من أموالهم .. فخير لك ألف مرة أن تكون عاملا عبر هذه الحقول .. يأكل بعرق جبينه حلالا طيبا ! .

بل إن ذلك الفقيه القابع فى زوايا بيت صغير يرتل القرآن ترتيلا فلا يسمعه أحد.. ولا يبسط يديه لأحد أعظم قدرا عند منزل القرآن سبحانه !!

ولكن القارئ لا يتحمل العبء وحده .. للإنصاف ! فنحن الذين نصنع الموقف.. ونرتب له .. ونتنافس فيه .. وكان بإمكاننا أن ننفق « المعلوم » على مستحقيه من أهلنا ..

لقد كان ﷺ يترك الصحابة فى غمرة فرحهم برؤية الغيم فى السماء .. ثم يعود إلى حيث نزلت الآية الكريمة :

[قالوا هذا عارض ممطرنا] ويمتلئ قلبه إشفاقا على أمته أن ينالها أذى ..

ووقف فى دوامة الذكرى .. مأخوذا بجلالها مؤديا بذلك حق القرآن عليه وعلى الناس ..

« ويرحم اللّه جبير بن مطعم » .

لقد كان يصلى خلف رسول ﷺ فقرأ :

« أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

وكاد قلبه أن يطير فزعا .. وإحساسا بهول الموقف ..

فأين هى قلوبنا التى تطير بنا إلى « المبالغ » لا إلى المبادىء ؟

إلى الدنيا .. لا إلى الآخرة ؟ ومن سوء حظ بعضنا .. أنه يملك الصوت الجميل والنبرة الشجية وبدل أن يسأل اللّه أن يغنيه بحلاله عن حرامه .. بهذا الصوت المقبول بلا حاجة إلى التزيد المرذول ..

بدل هذا يقفز هو فى الظلام .. فى سباق طويل .. لا ينتهى .. وإذا انتهى فإلى اليأس منه التفرد فى حلبة السباق ! فالأصوات الجميلة طعوم .. ومذاق .. تختلف .. لكن لا يغنى طعام عن طعام ..

وكان الظن بأهل القرآن أن يكونوا عند مستوى الآية .. فيستقبلوها بأفئدة تصغى بكل طاقة السمع فيها إلى ما تحمله الآية من نذير يفرض على الناس البكاء.. أو التباكى .. على الأقل !

وضاع الدرس المستفاد بين مشاعر الزهو يخفق بها قلب الشيخ ..

وصياح المريدين الراغبين فى مزيد من المتعة الحرام ..

تداعى المعانى :

كان الفنان « محمد عبد الوهاب » من عشاق صوت الشيخ « محمد رفعت » وكانت متعته أن ينفرد به حين يتلو كتاب اللّٰه تعالى عبر « المذياع » .. يغلق حجرته عليه .. ليعب من المتعة ما شاء .. بعيدا عن الضجيج الذاهب بروعة القارئ .. وجلال القرآن .

وذات يوم سمع دقا عنيفا على باب حجرته ..

وكان الطارق هو : أمه التى نبهته إلى ما يصدر منه لحظة القراءة من هتاف.. ودوى .. إلا أنه لم يكن يشعر به .. لأنه كان يستغرق بكل أحاسيسه فى النغم الشجى الندى إلى الحد الذى كان يتمنى فيه أن تتحول جوارحه كلها إلى آذان تسمع.. بل تستمتع إلى الصوت الذى لم يكن يكفى لاستيعابه أذن واحدة !

وحدث أن صحب « عبد الوهاب » الشيخ إلى القناطر الخيرية ..

ويحكى عبد الوهاب فيقول :

كان الشيخ إذا قرأ .. تسكت العصافير فلا تزقزق ..

فإذا سكت .. زقزقت ..

وتكرر هذا مرارا ..

ولكننى غنيت .. فلم تكف العصافير عن غنائها .. وأحسست عندئذ بكرامة الشيخ .. وعظمة القرآن ! .

استطراد :

ولا بأس ونحن نحرض أهل القرآن على حسن التعامل معه أن نشير إلى إخلاص أهل الفن والطرب لفنهم . الأمر الذى يحمل صاحب القرآن مسئولية أكبر وأعظم :

فقد ذكروا أن أمير الشعراء «أحمد شوقى» احتضن « محمد عبد الوهاب صغيرا » .

ولما اكتشف موهبته صمم على أن يجعل منه شيئا فريدا : فمنعه من الغناء صغيرا .. إيمانا من « شوقى » بأن الصوت « رصيد » وكلما أخذ منه .. نقص ..

ثم رباه فى بيته مع أولاده . ليكون تحت إشرافه .

وقد كـان يذهـب بـه إلـى « فرنسـا » ليشـاهدا معـا . ويسـمعا معـا مـا يـدور فـى «الأوبرا » هناك .

ثم يعود به إلى « لبنان » ليسمع الأنغام الشرقية ثم يختزن هذا كله فى وجدانه .. حتى إذا نضج .. كان على أو فى معانى الاستعداد لأداء دوره .

وإذا كانت هذه عناية أرباب الألحان .. فكم تكون مسئولية أهل القرآن ؟! .

واجبنا أن نقبل على الدواء

إرادة الشفاء .. شفاء أنفسنا من أمراضها

بدل أن نستعمل الدواء « من الظاهر » نغماً وصياحا.

وإدراك هذه الحقيقة يخفف من متاعب التدافع بالمناكب .. ليرضى كل بما قسم اللّه له من حظوظ .. بقدر ما يؤكد للورثة الأوفياء .. أن يترجموا هذا الوفاء فـى رحـاب الفقراء براً .. وإحسانا .. بدل أن يبددوه بين يدى القراء .. استعطافا .. وإسرافا ! .

* * *

العمل بالقرآن

تمهيد

يقولون :

إن مصادر الحق ثلاثة :

القرآن الكريم .

السنة المطهرة .

الفطرة .

ولا رابع هناك

دليل أن السنة يشملها القرآن :

١ - ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ .

٢- ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وما دام القرآن الكريم محفوظا .. فما يشمله القرآن وهو السنة محفوظ أيضا .

المراد بالحفظ

١- حفظ النص القرآني

٢ - حفظ اللغة العربية

٣ - وحفظ اللغة يعني :

أ - دلالة اللفظ على معناه الأصلي . وليس المتعارف .

ب - النحو والصرف والبلاغة (بمعنى أننا لا ننقل معنى إلى مجاز إلا بقرينة من نفس الكلام . بعيدا عن شطحات العقل .

ح - كما يعني الحفظ : حفظ السنة المطهرة .

من ثمرات الحفظ :

من ثمرات حفظ القرآن : رفض كل القوانين البشرية التي يراد تحكيمها فينا حتى تظل رحمة الله قريبا منا :

فقد جاءت أحكامه تعالى مطابقة لسننه .. فكفانا بهذا التطابق شر الخطأ لأننا نفهم هذه السنن .

أمثلة :

إن عاقبة الخطأ سريعة ولا شفاعة فيها .

ومن الأمثلة على ذلك :

القفز من أعلى مدمر .. ولو كان بحسن نية .

الاختلاط مفسد (ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما) .

الخمر مضرة :

فقد قال الإسلام :

كل مسكر حرام ..

وما أسكر قليله .. فكثيره حرام .

والخمر تؤثر على مراكز المخ العليا .. وهذا بدوره يؤثر على صاحب المهارة الفنية .. وعلى المتسلق أيضا .

وإذا كان الحق تعالى قد تفضل علينا بحفظه لنا .. فواجبنا أن نشكر نعمة الحفظ بالعمل به .

من صور التطبيق العلمى

عن سهل بن معاذ عن أبيه قال :

من قرأ القرآن . وعمل به . ألبس والداه تاجا يوم القيامة : ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا .

(فما ظنكم بالذى عمل بهذا) [1]

ويعنى ذلك : أنه إذا كان هذا الجزاء العظيم لمن كان سببا فى تحفيظ غيره القرآن والعمل به .. فكيف بصاحب القرآن نفسه .

ولقد كان العمل بالقرآن هدف السلف الصالح . والذين كانوا يضبطون خطوهم على ضوء تعاليم القرآن والتى تكشف الأصيل والدخيل :

قال الحسن البصرى :

(لن يزال للّه تعالى نصحاء فى الأرض من عباده :

---

(١) رواه أبو داود ، والحاكم .

يعرضون أعمال العباد على كتاب اللّه : فإذا وافقوه .. حمدوا اللّه :

وإذا خالفوه .. عرفوا بكتاب اللّه تعالى ضلالة من ضل وهداية من اهتدى .

(فأولئك خلفاء اللّه) [١] .

ومن هؤلاء الأبرار :

الإمام الشافعي – رحمه اللّه تعالى – :

لقد كان له منهجه في التعامل مع القرآن الكريم فقال :

لي ختمة .. أقرؤها كل جمعة مرة .

ولي ختمة .. أقرؤها كل شهر مرة .

ولي ختمة .. أقرؤها كل سنة مرة .

ولي عشرون سنة لم انته من ختمة بعد !

فقيل له .. ولم ؟! قال :

إني أربأ نفسي على آيات اللّه : فأقرأ الآية .. ثم أطبقها على نفسي . فإن ظننت انني على الحق فيها .. انتقلت إلى غيرها .. وإلا بقيت .. حي أطهر نفسي . وحتى أستجيب للّه تعالى .

ومعنى ذلك : أن صحبة القرآن الكريم صحبة مضنية .. ينبغي أن يحشد المسلم لها كل طاقاته وخبراته ..

فإذا أنست روحه وانتشى قلبه بتلاوته .. فقد حقق مهمته النظرية .

وعليه أن يأخذ الخطوة العملية لتطبيق آياته على نفسه أولا .. فإذا كان صاحب القرآن زراعيا .. أو مهندسا .. أو طبيبا .. فقد فرض عليه ولاءه للقرآن أن يدخل إلى ساحته بتلك الخبرة .. وهذا التخصص .. فهو أدرى من غيره بأسرار هذا اللون من الدراسة فهو بعد ذلك أقوى من غيره في الدعوة إلى الله في عصر العلم الكوني.. وفي بيئات لا تؤمن إلا عن هذا الطريق العلمي ..

فإذا آثر العالم المتخصص أن يترك مجاله .. ليشتغل بالوعظ المجرد .. تاركا هذا الحقل البكر .. فقد أوشك أن يجعل القرآن عضين .. بمعنى أنه يبذل طاقاته في غير ما خلقت له من شئون وشجون ! .

---

(١) الاعتصام ج١/١٦ .

الكنز الذى لا يفنى :

من الرغبات المركوزة فى طبع الإنسان :

أنه دائما طامح إلى الترقى والتفوق على الآخرين . ليظل أبدا فى بؤرة الشعور.. فيهتم به من حوله .. حتى قرر علماء النفس : أن رغبة الإنسان فى أن يكون مهما فى عيون الآخرين هى الحافز الأول وراء كل نوازعه . وتصرفاته .

ولكن .. بأى شيء ينال الإنسان اهتمام الآخرين ؟

بالمال ؟ .. بالقوة . ؟ بالمنصب ؟

لا يمكن أن يكون هذا العرض الأدنى وسيلة فعالة إلى الفوز بتقدير الناس ..

وإنما بشيء عظيم وراء ذلك كله هو : الإيمان .. ودستوره : القرآن . والأصل فى ذلك كله قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر : ٨٧ - ٩١] .

لقد كان ﷺ يرى الكفار غارقين فى ألوان النعيم .. بينما يبدو بؤس المؤمنين .. مع أنهم يسارعون فى الخيرات .. فيحزن لذلك الذى يراه .. فجاءت الآيات الكريمة لتقرر ما يلى :

١ - إن قلبك الصافى .. المطبوع على الخير يفرض عليك الوقوف عند حد الإحساس النبيل .. وإذا .. فلا تتماد فى حزنك .. ويكفيك أنك بلغت الأمانة وأديت الرسالة .

٢ - إلى جانب أنك أوتيت القرآن العظيم الذى يغنيك عن التطلع إلى هؤلاء .. فلا تمدن عينيك إلى متعهم الحسية .. ومعك ما يزرى بها . إن ما يملكون من مال ومتاع (مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات) وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه - :

ومن أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى . فقد صغر عظيما وعظم صغيرا [1]

---

(١) البيضاوى .

٣ - وإذا كان ولا بد من مشاعر الحزن .. فلتكن تألماً لما يصير إليه هؤلاء الكافرون . من دمار .. رحمة بهم . وشفقة عليهم .

وتلك سمة القيادة المؤمنة : الرحمة لعدوها .. وليست هي من قيادات الدنيا التي تدمر خصومها ولا تعيش إلا على أشلائها .

٤ - ولتتجاوز بهذه الرحمة ما يتنافس فيه المتنافسون من عرض الدنيا .. لتواصل جهادك المبرور .. مبلغا رسالة ربك معلنا أنك النذير المبين .

تخوف هؤلاء بمثل ما تخوف به المقتسمون : [الذين جعلوا القرآن عضين] فقالوا عنادا :

(بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل . وبعضه باطل مخالف لهما . أو قسموه إلى شعر ، وسحر ، وكهانة ، وأساطير الأولين) .

٥ - وربما جاز لنا أن نقول :

إن بعض المسلمين اليوم يأخذ كفله من هذا التخويف ..

فهو وإن آمن بالقرآن الكريم كله دستورا للحياة .. إلا أنه يجعل القرآن عضين حين يصرف همه إلى قضايا هامشية .. تاركا القضايا المصيرية معلقة .. لا سيما أولئك الذين أوتوا حظا من العلم الكوني .. ويمكن الإفادة منهم لو أنهم صرفوا طاقاتهم وإمكاناتهم في الكشف عن بعض هذه الأسرار الداخلة في تخصصاتهم ومن خلالها يمكن أن تكون دعوتهم إلى الإسلام مجدية .. في عصر العلم .

وهكذا كان العلماء الأوفياء للقرآن ..

والذين كان من وفائهم له .. أن يستحضروه .. ثم يحكموه فيما دق من مشكلات... فكان من خلالهم يوجه الحياه إلى التي هي أقوم :

وكان ذلك على مستوى القمة

دعاها هارون الرشيد كل العلماء في محاولة لإنقاذه من ضائقة عائلية ألمت به.

والمشكلة أنه قال لزوجته : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة .

فاختلف الجميع .

وكان الليث في آخر الصف .

فاستدعاه الخليفة . فقال له الليث : افتح المصحف واقرأ سورة الرحمن .

وعند قوله تعالى .. ولمن خاف مقام ربه جنتان

استحلفه .. الليث قائلا ثلاث مرات :

أتخاف الله ؟

وفى كل مرة يقول الرشيد نعم !

قال : يا أمير المؤمنين .

إنها جنتان .. لاجنة واحدة !

وانحلت المشكلة ..

لكن الرشيد - ابتهاجا بما حدث - أجرى فى حاشيته العلمية حركة تنقلات .. تغير بها سلم الأولويات .. حيث صار الليث منذ ذلك اليوم من المقربين الذين لم يقتصر دورهم على الفتوى .. وإنما صار لهم دور سياسى حيث كان الرشيد يعزل من الولاة ما يرى الليث عزله ! .

من هو الرجل القرآنى ؟

كانت « الرجولة » قبل الإسلام لونا من المغامرة أو المقامرة :

تجد مهمتها الرئيسة فى إزهاق النفوس . وتطاير الرءوس ! .

وإذا لم تجد غريما تفرغ فيه شحنة الغضب .. فإنها تفعل ما يفعل اللصوص المحترفون عندما يفتعلون معركة بلا أسباب .. قد تراق فيها دماء وبلا حساب .

وإنما هو الحماس الذى يضرب ذات اليمين وذات اليسار .

إنها القدرة على أخذ المبادرة إلى الظلم صارت فضيلة يتغنون بها . فى مثل قول شاعرهم :

بغاة ظالمين وما ظلمنا

ولكنا سنبدأ ظالمينا

وعلى الجانب الآخر .. كان هناك فى فارس والروم : لقد استنوق فيهما الجمل.. حين حولهم الترف إلى كيانات هشة غذاها النعيم .. فخدر فيها الإحساس بالرجولة .

وفوق هذين الأسلوبين .. مدّ الإسلام جسرا .. محددا معالم شخصية الرجل المسلم كما ينبغى أن تكون . ورسم القرآن الكريم الخطوط العريضة .. والتى من خلالها

بدت صورة الرجل القرآني بكل ملامحه وسماته .. والتي نحاول هنا أن تجليها في ضوء الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ « رجل » ومشتقاتها .. على نحو تبدو فيه خصائص الرجولة بكل أبعادها .. والتي تصير مثلا أعلى لكل راغب فيها. ساع إليها .

قلوب معلقة بالمساجد :

وأول خط بارز في الشخصية القرآنية هو : تعلق القلب بالمساجد يقول تعالى :

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨].

إن عشاق المساجد ليسوا فقط أطهارا . بيد أنهم يحبون أن يتطهروا ..

فلا يكفيهم مشهد النظافة يبدو للعين المجردة .. لكن التطهر صار لهم عاطفة سائدة . مستقرة في القلب .. وعينا ثرية بالنقاء الذي تبذله طبعا .. لا تطبعا ..

إن قلوبهم طاهرة .. فلا تعرف الغل ولا الحسد .. وألسنتهم تغرف من هذه القلوب صفاءها .. فلا تقول هجرا .

إن المساجدا التي تعلقت بها قلوبهم هي تلك الجزيرة المترفعة وسط أمواج من الفتن ..

وهل يفعل المؤمن في المسجد إلا الخير ؟ .. ومن أين يأتيه اللفظ الفاحش بينما الجو كله يوحي بالطهر والعفاف ؟ .

صناع الرخاء :

وعندما يذهب المسلم إلى المسجد فإنه لا يحبس نفسه هناك .. لكنه يخرج منه إلى الحياة الواسعة مزودًا بقيم المسجد البانية الهادية . ليكون في مجتمعه خلية نحل.

يقول سبحانه :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [النور : ٣٦ - ٣٧] .

إن الرجل القرآني عامل آمل .. حركة دائمة .. له مال .. وتجارة وصلته بالدنيا لا تنقطع ..

لكن هذه الدنيا في يده . لا في قلبه .. ومن ثم فهو يستمتع بثروته شريطة أن يظل مرتبطا بالمثل الأعلى فلا يفرط في جنب اللّه .

وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

الرجل القرآنى

اجتماعى بفطرته

وللرجل القرآنى علاقات اجتماعية وثيقة فهو ذو مروءة . ونجدة : يرى غيره مشرفا على الغرق فيخف لإنقاذه بنصحه .

يقول تعالى :

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] .

لقد كلف نفسه مشقة هذا السفر البعيد .. من أقصى المدينة » ثم إنه جاء يسعى.. وعلى جناحى طائر ..

إن نفسه الكبيرة تدفعه لتحمل المشاق .. يعيش هموم الآخرين وإن لم ينتدبه إلى النجدة أحد .

والحكمة عنده :

لغة التخاطب :

والرجل القرآنى الذى عمر باطنة بالقرآن .. فأراد الخير للغير .. يحاول أن يصدر إيمانه . وخيريته للآخرين عبر قنوات التفاهم الحكيمة المؤثرة .

يقول تعالى :

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ .

وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٢٢] .

إنه لا يحكم العاطفة فقط فى القضية محل النزاع .. وإنما يحكم العقل والقلب معا .

١ – إنهم قومه .. ومن ثم فهو أحرص على مصلحتهم . وأسعد من غيره بتحققها .

٢ – ثم إن هؤلاء الدعاة «مرسلون» من قبل جهة عليا.فهم مأمورون.. لا متآمرون: ليس هناك دافع شخصى يزين لهم عملهم .. فلم لا تتبعونهم ؟

٣ – وهم قبل ذلك مخلصون .. لا يسألونكم على التبليغ أجرا .

٤ – ومن مظاهر حكمته أنه يدير الحديث حول نفسه.. حتى لا يثيرهم وذلك قوله :

﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ .. وكأنما هم ليسوا طرفا فى النزاع :

٥ – ولكنه فى نفس الوقت أمين معهم . حين يثيرفيهم الإحساس بالمسئولية عندما يدخلهم معه فى الصورة بما حكاه القرآن عنه وهو يخاطبهم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أعلى مستويات الشجاعة :

وتجيء قصة الرجل المؤمن من آل فرعون لتضيف إلى ما سبق أعلى مستويات الشجاعة كما يجب أن يتحلى بها حامل القرآن :

يقول تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ.. ﴾ [غافر : ٢٨] إنه رجل .. واحد فقط .. ومن الأسرة الحاكمة ..

وإيمانه وإن كان مكتوما فى صدره .. لكنه كان كالبذرة المدفونة فى أرض خصبة .. إنها تنبت ألف حبة !! .

ومع شجاعته .. فقد كان حكيماً فى نقده ..

ومن مظاهر حكمته :

١– أنه يقول لهم : فكروا جيداً إنكم تقتلون رجلاً .. لا جملاً ! تقتلونه لسبب هو فى نفس الوقت مانع من قتله : فهو يقول ربى اللّه .. وليس هذا سببا لإ عدامه.. فلم تجعلون المانع من القتل مقتضيا له .

٢ – وعلى فرض أن هناك من يستحق القتل فهو أنتم .. لا هو ! .

٣ – لقد جاءكم الرجل بآيات بينات .. واضحات .. فلم يرهقكم من أمركم عسرا.. أنتم مجحفون فى القسمة !!

زيد بن ثابت الرجل القرآنى :

قال زيد بن ثابت – رضى اللّه عنه – :

[أتى بى النبىّ ﷺ مقدمة المدينة . فقالوا : يا رسول اللّه : هذا غلام من بنى النجار . وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة .

فقرأت على رسول اللّه ﷺ . فأعجبه ذلك . وقال يا زيد :

تعلم كتاب يهود – أى: لغتهم – فإنى واللّه ما آمنهم على كتابى. قال: فتعلمته.. فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته . وكنت أكتب لرسول اللّه ﷺ إذا كتب إليهم].

تمهيد :

قال صاحب « نفح الطيب » عن سبب ظهور النبوغ فى العلم والأدب فى الأندلس :

[كانوا يعظمون من عظمه علمه . ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم فى رجال الحرب :

يقدمون من قدّمته شجاعته . وعظُمَتْ فى الحروب مكايده] وكذلك فعل الصحابة – رضوان اللّه عليهم – عندما قدموا للرسول ﷺ من قدمته موهبته . المؤهّل للقيام بدور رئيس فى حفظ القرآن الكريم . والمحافظة على قيمه ومبادئه .

ويكفى دليلا على عبقريته أنه أجاد عدة لغات فى وقت واحد : العبرية والسريانية والقبطية والرومية .. وفى زمن قياسى .

ولقدوْ فِّق إلى هذا بما كان يملك من : ذكاء لماح .. وذاكرة واعية .. إلى جانب كونه فتى جلدا .. عاقلا .. لم تلاحظ عليه ريبة فى خلقه ولا فى دينه . ولقد نجح فى مهمته أيما نجاح .. لأنه عاش الفكرة .. الفكرة التى لا حياة لصاحبها ما لم تكن له رداء وكفنا يعنى : عليها يعيش .. وعليها يموت

أثر البيئة :

وقد كان للمجتمع دوره البارز فى اكتشاف النابهين أولا .. ثم فى إعدادهم للمستقبل ثانيا ..

وكان « زيد » – رضى اللّه عنه – من هؤلاء المصطفين .. الذين استثمر المجتمع مواهبهم وصقلها .. حتى استوت على سوقها :

حدث فى غزوة الخندق أنه كان ينقل التراب مع المسلمين فلما رآه ﷺ قال :

إنه نعم الغلام :

وكانت راية بنى مالك بن النجار يوم تبوك مع عمارة بن حزم فأخذها رسول اللّه ﷺ . ودفعها إلى زيد بن ثابت فقال عمارة :

يا رسول اللّه : بلغك عنى شىء ! قال : لا .. ولكن القرآن مقدم .. وزيد أكثر أخذا للقرآن منك ولقد آتت هذه الرعاية النبوية أكلها :

[فقد كان ابن عباس – رضى اللّه عنه – على جلالة قدره وسعة علمه يأتيه إلى بيته للأخذ عنه ويقول :

العلم يؤتى .. ولا يأتى

وأخذ ابن عباس بركاب زيد . فنهاه زيد فقال ابن عباس :

هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . فأخذ زيد كفه . وقبّلها . وقال وهكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا] (١) .

صاحب القرآن لا يخرف:

يقولون : من حفظ القرآن الكريم متع بعقله ..

ومن تدبره .. ثم عمل به كان أشد إحساسا بالمتعة .

وأذكرهنا ذلك الشيخ الوقور من شيوخ القرية : كان يذهب إلى الحقل كل يوم وبعد أن يؤدى صلاة الفجر .. يدرب قدميه على المشى .. فى محاولات يحفظ بها قدميه لتظل قوية .

ثم يستنشق الهواء الندى . النقى .. ولقد ظل الشيخ قويا حتى مات ..

ذلك بأنه حافظ على جوارحه فى الصغر . فحفظها اللّه له فى الكبر .

وهكذا كل عضو يمارس وظيفته .. لأن الوظيفة كما يقولون تخلق العضو .. وهكذا يعايش القرآن الكريم بعقله .. فتظل ذاكرته قويه .. وذكاؤه وقّاداً .

ولذلك قالوا

العالم لا يَخرف .. لأن عقله مشغول بالقرآن دائما

حفظا .. وتدبرا .. وتطبيقا

ألا وإن القرآن الكريم ليحمى صاحبه من العصيان :

ذلك بإن القرآن فى جوفه : نور .. وهدى .. وعزيمة .

يحبب إليه الإيمان .. ويكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان . وهو يفرض عليه أن يكون فى قومه طرازا فريدا . غريبا فى وطنه .

يحزن .. إذا فرح الناس .. ويبكى إذا ضحك الناس .

---

(١) راجع الإصابة ، والاستيعاب . وأسد الغابة .

القرآن
والطاقة الفاعلة

تمهيد :

للمنهج القرآنى أصوله فى تعامله مع النفس الإنسانية :

١ – إنه يعترف بواقع الإنسان . وحقه فى إشباع رغباته الفطرية .

٢ – لكنه لا يترك للغرائز حبلها على غاربها . ترتع فى أرض اللّه إلى حد البشم . وإنما يربطها بهدف عال غال .

٣ – ثم يعلو بها .. بعيدا عن الكتب أو الانفجار .

٤ – وعلى جناحين من الترغيب والترهيب يصعد بها فى سماء المعالى .

٥ – وخلال ذلك يندد بالعاجزبن . القادر ين على التمام . منوها فى نفس الوقت بالعاملين .. ليوا صلوا جهادهم المبرور فى اتجاه الكمال الإنسانى :

والحقيقة اللائحة من وراء ذلك كله هى :

أن القرآن ينوه بقدرة الإنسان على الحركة والبناء . راصدا كل طاقاته للتعمير والتنوير . حتى يأكل من عمل يده متحررا بالعمل من استبداد الآخرين ..

القرآن

دليل الأمة :

[اشتمل القرآن الكريم كما يرى البصراء – اشتمل على أصح رؤية: لحقيقة الكون.

وسنن الاجتماع .

وعلاقة الإنسان بالكون .

كما اشتمل على أرشد المناهج والأساليب الضابطة لخطو الإنسان وسلوكه .

وبلغ من تقُدميّته أنه يواكب الدنيا فى سيرها .. ولم يستطع البشر استيعابه . مهما طارت بهم مخيلاتهم وأحلامهم .. ويستقبله كل عصر .. فيحس بأنه جاءه هو بالذات .. من حيث كان القرآن هو التعبير الصادق عن الفطرة السوية .

والقرآن الكريم بهذا المفهوم المتراحب العميق .. وهذا الدورالشامل الكامل .. هو دواء الإنسانية . وشفاؤها من أسقامها . دون مذاهب الأرض :

هذه المذاهب التى خدرته .. ثم حطمته . كما قيل بحق :

لآخر ذرة فى كرامته .

وآخره لمحة فى وجوده .]

وكلما حاولت مذاهب الأرض إصلاح ما أفسدت .. عالجت تطرفًا .. بتطرف آخر.. لكن يبقى الإسلام وحده هو منقذ البشرية من ضلالها .. والذى نقل العرب من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم لقد صنع على عينه جيلا :

مؤمنا .. بصدق

عاملا .. فى جد .

مجاهدا .. فى عزم

معطيا.. فى سخاء

وإذا كان الغيث ينزل مدرارا ... ثم يسرى فى أخاديد الأرض فيخرج بعد ذلك جنات وحب الحصيد . فإن القرآن الكريم له نفس الأثر فى حياة الروح . وملكات النفس الباطنة .. يغذيها وينميها . ويشيع فى أرجائها سحرا حلالا .. وما يشبه أن يكون زرعا .. وزيتونا ونخلا .. وحدائق غلبا .

ولعل هذا ماعناه مالك بن دينار بقوله – مازرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن.. إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض .

ولن يعطى القرآن ثماره تلك اليانعة لهؤلاء الذين لا يفهمونه .. وإذا فهموه فلا يجدون الإرادة الباعثة على العمل .. وإنما يعطى القرآن أسراره .. للذين وهبوه قلوبا خالية من مشاغل الدنيا .. للذين اتخدوه غذاء للقلوب . ولم يجعلوه سبيلا إلى ملء الجيوب .

وعلى هذا الأساس ربَّى محمد ﷺ أصحابه جاعلا من القرآن فى ضمائرهم حارسا يقظا يمضى بهم على سواء الصراط . ولم يشأ أن يكون كلمات – تجأر بها عقيرة .

عن ابن عمرو بن العاص قال .. قلت .. يارسول اللّه فى كم أقرأ القرآن .

قال .. اختمه فى شهر قلت : إنِّى أطيق أفضل من ذلك . قال : اختمه فى خمسة عشر . قلت .. إنِّى أطيق أفضل من ذلك .

قال .. اختمه فى عشر قلت : إنّى أطيق أفضل من ذلك .

قال .. اختمه فى خمس قلت : إنّى أطيق أفضل من ذلك .. فما رخص لى .

وفى رواية .. – فإنه لا يفقه من قرأه فى أقل من ثلاث .

فمع صدق النية لدى ابن عمرو ومع قدرته كشاب أن يواصل القراءة إلا أنه ﷺ يأخذه بالطريقة المثلى .. الواصلة به إلى مزيد من الإيمان . فليس المهم .. كم تلوت.

وإنما بالإيمان الباعث على الفهم والتطبيق ولعل هذا بعض ما يشير إليه قول ابن عمر – رضى اللّه عنه – .

لقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن .. وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن نقف عنده منها .. ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب .. إلى خاتمته .. فلا يدرى ما أمره وما زاجره .. وما ينبغى أن يقف عنده .. ينثره نثر الدقل – أى ردىء التمر –

وبالحسّ الإيمانى يرتفع المسالم إلى أفق القرآن العالى ... كما قال الحسن البصرى .

واللّه ما أصبح اليوم عبد يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه .. وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكبر نصبه .. وقلت راحته أى أن المسلم بهذا القرآن يتحول إلى طاقة فاعلة تتحرك فى كل اتجاه مرتفعا بنفسه فوق هزل الحياة . وكلما عايش القرآن .. كلما منحه من لدنه مزيدا من الطاقة وإحساسا بالمسئولية يقترب به من الملا الأعلى حتى لكانه مسئول شخصيا عن تطبيق هذا القرآن قال بعض السلف:

كنت أقرأ القرآن . فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول اللّه ﷺ يتلوه على أصحابه .. ثم رفعت إلى مقام فوقه .. فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول اللّه ﷺ .. ثم جاء اللّه بمنزلة أخرى .. فأنا الآن اسمعه من المتكلم به ..

وعندها وجدت نعيما ولذة لاصبر لى عنهما .

وطبق هذا المنهج الراشد : كانت حياة فيلسوف الإسلام – إقبال – يقول ..

كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم .. وكان أبى يرانى .. فيسألنى ماذا أصنع فأجيبه .. أقرأ القرآن .. وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألنى سؤاله فأجيبه جوابى .

وذات يوم قلت له : مابالك يا أبى تسألنى نفس السؤال .. وأجيبك جوابا واحدا.. ثم لا يمنعك ذلك من إعادة السؤال من غد .

فقال أبوه : إنما أردت أن أقول لك .. يا ولدى اقرأ القرآن كأنما أنـزل عليك .. ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست . ومن درره ما نظمت .

ولعمرى .. إنها لدرر أغلى مما يعتز به بعض المنتسبين إلى القرآن اليوم .. حين يرفعون عقيرتهم بآياته يستجلبون بها الصيت الذائع والمبلغ الزائد .. ثم يعودون من سهراتهم بالجيوب تملأها الدراهم .. وبالقلوب يحدوها الطمع إلى المزيد.. وقد تنسيهم النشوة أن يلقوا عليك السلام وقُلْ .. على الدنيا السلام . وهكذا الرجل القرآنى .. كما يصفه القرآن الكريم .. لمن أراد أن يتخذ إلى مثله سبيلا .

إنه مسلم .. وأخلاقة أيضا مسلمة .

ووسيلته فى التخاطب أيضا مسلمة .

وهو بهذه الخصائص جميعا أقوى من القنبلة .. وأمضى من كل سلاح .

ورحم اللّه أستاذنا « السباعى » حين قال مذكرا بدورنا إزاء القرآن : أن نلفت الدنيا إلى أدب القرآن . ونشيد له الجامعات ثم عقدنا له المؤتمرات . وألفنا فيه الحوليات . وأنشأنا له المختبرات .

ولجعلناه شاغل الدنيا . ومالئ تفكير الناس .

ولشوقنا إليه النفوس فتعلقت به . ولجلونا جماله للعقول فدلهت به]

[إن القرآن فى أيدى المسلمين سلاح معطل .. لا يستعملونه للدفاع ولا للهجوم.

ولا للهدم ولا للبناء .. وهو صالح لذلك كله لو كانوا يعلمون]

[إن ثورة القرآن ضد الظلم والفساد والباطل .. ما تزال قائمة لم تنته معركتها. ولن تنتهى .. ما دام فى الدينا ظلم وفساد وباطل .

ولكن :

هذه هى الثورة .. فأين الثوار ؟.

وهذه هى الأبواق .. فأين ضرام النار ؟.

وهذه البنود .. فأين الجنود ؟ !

وهذه المشاعل .. وهذه القوافل .. فأين الزنود ؟.. وأين من يقود ؟] (١) .

القرآن الكريم

قيِّم على الحياة

جاء القرآن الكريم ليكون قيِّما على الحياة فى كل مناحيها :

السياسيه . والاقتصادية . والاجتماعية . والنفسية . لقد كان تعليما للجاهل .

وتصحيحا للفهم

ولفتا للنظر .

ودليلا على الطريق

فكان بحق منشئ الحضارة الحقيقية ..

وكان من الله تعالى رحمة مهداة . ونعمة مسداة : نعمة .. تشكرها بالقلب .. تصورا لها باللسان .. تصويرا لجلالها .

ثم بالجوارح .. تحقيقا لمضمونها .

إن القرآن الكريم :

مجيد كريم حكيم . عزيز . ثم هو محفوظ . دون سائر الكتب المنزلة ومن جادته وشرفه أن الجارية تستقبل حديثه فى الموضوع الحساس .. فلا يخدش حياءها..

ومن عزته أنه محروس .. كالطود الأشم .. لا يقتحم حماه أحد : [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] .

[لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه] .. يقول ابن تيمية : [الركوع السجود حالتا خضوع فلا يقرأ فيهما القرآن .. وإنما يقرأ فى القيام .. اعزازا له]

ومن كرمه : أن الحرف بعشر حسنات .

ثم هو كريم مع من حفظه وعمل به . بل على من كان سببا فى ذلك كالوالد يقرئ ولده القرآن .

---

(١) هكذا علمتنى الحياة .

ومن كرمه : ظهور أثره المبارك على من صحبه .. تماما كما يظهر أثر طعام النحل فى العسل .

وتعنى الصحبة هنا : تحليل حلاله . وتحريم حرامه .

قيل لأحدهم : هنيئا لك ما قرأت فقال : بل قل : ما أحللت !

أما عن حفظه :

ما حكاه أحد العلماء : أنه ذهب إلى تركيا .. ثم زار « كُتَّابا » فى قرية .. وكان محفظ القرآن يقول للصبى التركى : اقرأ صفحة كذا من المصحف فيقرؤها .. واقرأ السطر الأخير من صفحة كذا .. أو من الآية رقم كذا .. فيقرأ .. ولا يتلعثم .. مع أن الصبى أساسا لا يعرف من العربية حرفا !

وتلك وسيلة من وسائل حفظ اللّه تعالى لكتابه ..

ثم قصة هذا الطيار الألمانى الذى استمع إلى الشيخ « رفعت » ..

ولما انتهت مهمته وَوَضعت الحرب أوزارها .. جاء إلى مصر ليكون إلى جوار الشيخ .. ثم أسلم وحسن إسلامه .

يقول أحد العلماء عن أثر القرآن :

إن القرآن الكريم له سحر حلال وجاذبية .

تتحداك ..

يواجهك ..

يجيب عن كل ما يدور فى خاطرك .

وقد دخل عمر – رضى اللّه عنه – الإسلام بآية واحدة ..

ودخل من بعد من أفذاذ العالم ..

ومما يذكر هنا أن رجلا قال لهذا العالم :

إن هناك ألوفا من المسلمين يدخلون النصرانية .

فردد الشيخ قائلا :

إن الداخلين فى دينكم هم المرضى والفقراء .. من الباحثين .

عن لقمة الخبز . وحبة الدواء .

أما الذين يدخلون الإسلام منكم فهم العلماء والأغنياء .

يدخلون فيه أفواجا .. طواعية . وبلا إكراه .

وإذا كان الحق تعالى قد تفضل علينا بإنزال القرآن ..

ثم حفظه سبحانه وتعالى .. فقد بقى علينا أن نشكر هذه النعمة بالعمل به .. ولا نتخذه مهجورا .

من بركات القرآن

كل شيء يدعوك إلى محبة اللّٰه تعالى :

ابتلاؤه . ونعمه ..

صحتك ومرضك .

غناك . وفقرك

ومن الأمور التى تدعونا إلى محبته تعالى :

١ – تلاوة القرآن .

٢ – الذكر .

٣ – إيثار محابه تعالى على محاب النفس .

٤– تفكر القلب فى أسمائه تعالى وصفاته وأفعاله .

٥ – الخلوة باللّٰه سبحانه وقت السحر .

٦ – مجالسة الصالحين .

٧ – مجانبة من يحول بينك وبين الطاعة من العصاة .

٨ – التفكر فى نعمه تعالى علينا .

٩ – لزوم الطاعة .

ويصدر العلماء قائمة الأسباب الجالبه للمحبة بالتلاوة .. لما لها من أثر فعال فى جلب هذه المحبة بدليل تقديمها فى الذكر على الصلاة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٩ – ٣٠] .

إعداد النفوس :

لكن الوصـــول إلـى هـذه الغايـة العظمـى لا يتهم إلا بـإعداد النفـوس . وتدريـب القلوب على صناعة الحب ..

وإلا فإن الأداء الرتيب لن يصل بك إلى الغاية ..

فلن يصل إليها الغافلون .. ولا المتغافلون .. روى مسلم (١) .

[غزا نبى من الأنبياء . فقال لقومه : لا يتبعنى :

رجل قد ملك بضع امرأة . وهو يريد أن يبنى بها .. ولما يبن . ولا آخر : قد بنى بنيانا ولما يرفع سقفها .

ولا آخر قد اشترى غنما . أوخَلَفَات – حوامل – وهو ينتظر ولادها] .

إن البال المشغول .. لن يصل بنا إلى المأمول ..

والأرض كـالنفس: لابـد مـن تهيئتهـا للزراعـة .. حتـى تنبـت جنـات وحـب الحصيد..

وقد كان ﷺ أحرص على التودد إلى صحابه لتكون معهم أنفسهم وهم يواجهون الأحداث .. حتى لا تهرب منهم فيواجهوا الأحداث فارغين :؟:

دخل ﷺ المسجد يوماً (وكان) سعيد بن المعلى يصلى .

فناداه ﷺ . فلم يجبه .

فلما فرغ الرجل من صلاته أقبل على الرسول ﷺ معتذرا .

فقال له :

أما علمت أن اللّه تعالى يقول :

﴿ يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ استَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَـاكُم لِمَـا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفـال : ٢٤].

فقال : لن أعود يا رسول اللّه .

والشاهد هنا أن رسول اللّه ﷺ أخذ بيد « سعيد » ثم جعل يطوف فى المسجد .

ويعنى ذلك : التودد إلى الرجل حتى تعود إليه نفسه الشارده . والتـى تسـتوعب الدرس وهى على أوفى معانى الأمان .

---

(١) ج ٥١/١٢ – تحليل الغنائم .

من إيحاءات الحروف :

ألف .. لام . ميم ..

إنه يتحدى ..

ولا يتحدى الرجل الإنجليزى ..

وإنما يتحدى العربى ..

فإذا عجز .. فغيره أعجز

وتأمل قوله تعالى :

﴿ باسم اللّه مجريها .. ﴾

وتذكر أن « حفص » لم يمِل إلا فى مجريها وترقيق الراء يعنى :

الرقة .. والسهولة .. والسيولة ..

وإذن .. فالسفينة لم تواجه موجا مضادا ..

وفى قوله تعالى :

﴿ اركب معنا .. ﴾

لقد أدرجت الباء .

لأن غنة الميم تشبه صوت الغزالة عندما تفقد ولدها . وهى هى التى تعكس وجيب قلب نوح عليه السلام .. من أجل قطعة منه .. هى ولده الذاهب باختياره إلى الموت .

تقدير العاملين

تقدير العاملين مبدأ قرآنى :

إننا إذا جحدنا حق العاملين فى التقدير .. فلم نستحسن عملهم .. ماذا يحدث ؟

١- ضعفت العزائم .

٢ - وتراخت الإرادة .

٣ - وتراجعت الآمال .

وبالتالى .. تتعطل المصالح . التى لا تتم إلا بالعزيمة الماضية والإرادة المصممة . والأمل الودود .

لابد من مقابلة الإحسان .. بأحسن منه . والفضل .. بالحمد .

والجد .. بالمدح .

فإذا لم نفعل .. استوى فى الأمـة الصـالح والطـالح . والبر والفـاجر . والكريم والبخيل . والعامل والخامل .

وبهذا يضمر فيها الميل إلى الكمال .. بل يضيع بالكلية .

وهو ظلم للنفس عظيم .. أشنع من ظلم الظالم :

لأن ظلم الظالم لا يدوم . أما هذا .. فسوف ينحدر من سَيِّءٍ إلى أسوأ .

وقد علمنا القرآن الكريم أن المدح الحق نعمة .. طلبها الأنبياء :

[واجعل لى لسان صدق فى الآخرين] .

وامتن اللَّه تعالى بها عليهم :

[ورفعنا لك ذكرك] .

من آثار الإيمان بالآخرة

فى دولة أجنبية .. سأل المذيع رمز هذه الدولة : ماذا تقـول للَّـه عندمـا تـراه ؟. فقال :

أقول له : عفوا !

وهكذا .. وبكل بساطة ينسى الزعيم يده التى لطخت بدمـاء الأبريـاء فـى البوسنة.. والشيشان .. والتى كانت متعتـه الكبرى .. أو سياحته المفضلـة أن يرى بنفسه مصارع الأبرياء . الذين بارك قتلهم وإن بدا أمام عدسـان المصوريـن فـى وداعة الحمل ! .

إنه باختصار : لا يؤمن بالآخرة .. لا يثق بأن هناك حسابا وعذابا .. ومـن ثـم كان هذا التبجح !

وفى الحديث عن هذه النزعة .. أو هذه المدرسة يقول تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففون : ١ - ٦] .

إن مجرد الظن بأن هناك « آخره » كاف فى ردع هؤلاء الماكرين الظانين باللَّه ظن السوء . الذين تدفعهم الأنانية إلى توفية الكيل لو اشتروا . ولكنهم ينقصونه إذا باعوا ..

هؤلاء الذين يسمون الحمار فرسا إذا أرادوا بيعه ..

ثم يسمون الفرس حمارا إذا أرادوا شراءه ! ويل لهم من يوم هو عظيم العدل في نفسه .. فكيف بالعذاب الذى يحتويه ؟ !

لقد غاب وعيهم بالمسئولية عن أعمالهم .. فظلموا .. فويل لهم مما كسبت أيديهم .

بل إنهم قد يتبجحون فيعلنون أنه حتى لو كان هناك آخرة فسوق يكونون فيها خيرا مقاما .. من الذين آمنوا ..

يقول تعالى فى هذا الصنف الجاحد :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٦].

من خصائص المؤمنين :

ولكن الإيمان باليوم الآخر حاضر فى وعى المؤمن لا يغيب .. وعلى ضوء هذا الإيمان تخلق ضميره الشاعر الحساس الذى يفوق فى حساسيته ميزان الذهب ..

لقد صارت حياته كدحا .. وعناء .. ومراقبة للّه تعالى .. إن لم يكن يراه .. فإنه يراه ..

ومن أجل ذلك .. لا يحس للحياة بمتعة بعد أن صار الإيمان بالآخرة واعظا فى كيانه مقيما يذكره الحساب والجزاء ..

لقد كان على ما يقول الشاعر :

أكاد أضحك للدنيا فيمنعنى أن عاقبنى على بعض ابتساماتى

روى البيهقى فى الشعب عن عائشة – رضى اللّه عنها – قالت :

قلت : يارسول اللّه :

قول اللّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] . أهو الرجل يسرق . ويزنى ويشرب الخمر . وهو مع ذلك يخاف اللّه ؟ قال : لا :

ولكنه الرجل : يصوم . ويتصدق . ويصلى . وهو مع ذلك يخاف اللّه ألا يتقبل منه .

وهكذا كل من علم أن هناك حسابا وجزاء .. وأن المحاسب هو : القادر العليم بما تخفى الصدور .

لكن الآية تذكر الخشية .. الوجل .. ولا تذكر الخوف .. ذلك بأن الوجل هو الخوف الشديد مضموم إليه الفزع

أساس هذا الوجل :

وأساس هذا الوجل هو الإيمان .. والإيمان بالآخرة بالذات : وصاحب هذا الإيمان :

يعلم يقينا أن عمله وقوله فى كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ... وسوف تشهد عليه جوارحة بما فعل .

وهذا هو الذى يحمله على تحرى الحق . والزهد فى الدنيا ثم يبدو الجبارون فى أعينهم هباء .. لأن ذكرهم عظمة اللّٰه تعالى ينسيهم بطشهم المحدود ..

ووعيهم بما فى الآخرة من نعيم .. يجعل من الدنيا بحذا فيرها هباء منثورا .

من وسائل الإيمان بالآخرة :

يقول عزّ وجلّ :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : ٢]

الآية الكريمة دعوة إلى قراءة الكون .. وصولا إلى الاهتداء . لقد أوجب اللّٰه تعالى على نفسه بيان السبيل القاصد .

وهو الإسلام بما يلى :

١ – بما أنزل إليهم من شرائع .

٢ – وبما أودع فيهم من أسباب العلم .

٣ – ثم بما أقام حولهم فى السموات والأرض من آيات بينات .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : ١٧ ، والرعد : ١ ، وغافر : ٥٩]

لا يؤمنون : جهلا .. أو إعراضا .. أو عنادا .. لأن الإيمان بالقرآن لا يحتاج إلا لمجرد سماعه .. ثم إن ما أشار إليه من آيات كونية يقرؤها الأمى .. فلا جهل هناك ..

ثم إنها تملأ الأفق .. فلا إعراض .. وهى فى نفس الوقت صارخة الدلالة .. فلا عناد .

لقد آمنت الجن بمجرد سماعها القرآن :

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن : ١٣] .

إن مجرد السماع أحدث فى الداخل ثورة .. لقد سمعوا ..

ثم . استمتعوا ..

وفى النهاية دعوا ربهم .

القرآن والعلم

تعجب المشركون من بشرية الرسول ﷺ وكان ذلك تهويناً من شأن الإنسان الذى لا ترشحه مواهبه فى زعمهم لتلقى الوحى من السماء : وإذا كان ولا بد من رسالة .. فليكن الرسول ﷺ : ملكاً أو جنياً .

وكان الرد الإلهى على هذا التصور الظالم : بيان ما فى الإنسان من خصائص جعلته أفضل من الملائكة والجن معاً .

أما بالنسبة إلى الملائكة :

فقد علم الله آدم الاسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة فأقرت بعجزها ثم كان سجودها لآدم بأمر ربها اعترافاً بقيادته وريادته .

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] الآيات .

أما بالنسبة إلى الجن :

فقد وقف الإنسان فى شخص محمد ﷺ موقف الأستاذ بينما الجن بين يديه يأخذون عنه . ويتعلمون منه . فكان لهم إماماً . وكانوا له تابعين :

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

قَالُواْ يَقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىَ طَرِيقٍ مّسْتَقِيمٍ .

يَقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللّهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

وَمَن لاّ يُجِبْ دَاعِيَ اللّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُولَـَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣٢] .

وهكذا يبوئ الحق تعالى الإنسان هذا المكان العلى .. مخيباً بذلك ظنون المشركين الظانين بالإنسان ظن السوء .. هذا الإنسان الذى سوف يحول بالإيمان وجهة الحياة .. سائراً بها إلى التى هى أقوم .

بماذا فضل الإنسان ؟

فضل اللّه تعالى الإنسان .. « وهو القوة المتهيئة لقبول العلم [1] ثم بالعلم الذى هو أفضل مكتسب بهذا العقل .

وفى بيان فضل العقل قالوا :

« ما خلق اللّه خلقاً أكرم عليه من العقل » [2] .

وقالوا فى فضل العلم .. وهو ثمرة العقل :

« ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى . أو يرده عن ردى » [3] .

أما فضل العلم وكيف صار به الإنسان إنساناً ففى مثل قولهم :

« العلم : تركة الأنبياء وميراثهم . وأهله عصبة ووراثهم .وهو حياة القلب . ونور البصائر . وشفاء الصدور . ورياض العقول . ولذة الأرواح . وأنس المستوحشين . ودليل المتحيرين . وهو الميزان الذى يوزن به الأقوال والأفعال والأحوال . وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين والغى والرشاد . والهدى والضلال .

به يعرف اللّه ويعبد . ويذكر ويوحد .

وهو الصاحب فى الغربة . والمحدث فى الخلوة . والأنيس فى الوحشة والكاشف عن الشبهة .

---

(١) بصائر ذوى التمييز ح ٤ مادة عقل .

(٢) المرجع والموضع السابق .

(٣) المرجع والموضع السابق .

والغنى الذى لا فقر على من ظفر بكنزه . والكنف الذى لا ضيعة على من أوى إلى حرزه .

مذاكراته تسبيح . والبحث عنه جهاد . وطلبه قربة . وبذله صدقة . ومدارسته تعدل الصيام والقيام . والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الشراب والطعام :

لأن المرء يحتاج إليهما مرة أو مرتين فى اليوم .. وحاجته إلى العلم كعدد أنفاسه . وطلبه أفضل من صلاة النافلة . نص عليه الشافعى ، وأبو حنيفة .

واستشهد اللّه عزَّ وجلَّ أهل العلم على أجل مشهود وهو التوحيد (١) وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته . وفى ضمن ذلك تعديلهم فإنه لا يستشهد بمجروح » .

ومما يؤكد أهمية العلم وروده فى القرآن الكريم بمادته ووسائله وثمراته بكثرة تستلفت النظر :

فمادة العلم تكررت ٨٦٠ مرة ، البيان ٢٥٣ مرة ، الكتابة ٣٢٠ مرة ، القراءة ٨٨ مرة ، الرأى ٣٣١ مرة ، السمع ١٨٥ مرة ، البصير ١٤٨ مرة ، النظر ١٣٠ مرة ، العقل ٤٩ مرة ، الفؤاد ١٩٤ مرة .

المقصود بالعلم فى منطق القرآن

ولكن ما هو ذلك العلم الذى رفع اللّه به الإنسان مكاناً علياً .. وبوأه فى ظله مبوأ صدق ؟ .

الإجابة عن هذا السؤال تفرض علينا رجعة إلى الوراء ، وقبل عصر النهضة فى أوروبا لنتأمل مفهوم العلم ، ومفهوم الدين ، فى محاولة للخروج بحقيقة العلم القرآنى وتحريره مما علق بأذهان الباحثين الغربيين ...

العلم والدين فى منطق الغرب

لمحة تاريخية :

فرضت الكنيسة سلطانها على العقل زمناً طويلاً فجمدته . وحرمته من البحث . فى الوقت الذى نحى فيه العلماء عن التأثير فى مجرى الحياة .. بل نكل بالعلماء تنكيلاً وصل أحياناً إلى حد إحراق بعضهم .

---

(١) فى سورة آل عمران ١٨ ﴿ **شهد اللّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم** ﴾ .

فلما بزغ فجر النهضة كان طبيعياً أن يثأر العلم لنفسه . ممن نكلوا به .

وكان المتوقع أن تنصب الغضبة على رجال الدين من الذين تولوا كبر التنكيل بالعلماء لكنها انسحبت على الدين نفسه ..

وكان من نتائج ذلك اعتزاز العلم بنفسه إلى درجة الغرور .. وتكبره إلى حد الاستعلاء . فى مواجهة الدين الذى انزوى فى مكان قصى لا يمكنه من مواكبة الحياة . والهيمنة عليها .

وظهر للعلم معناه الجديد .. وللدين أيضاً معناه .

جاء فى دائرة معارف القرن العشرين :

« الدين هو الطاعة والانقياد ، لجميع ما يعبد به اللّه .

والعلم هو مجموع المعارف الإنسانية المؤيدة بالدلائل الحسية .

وهو لا يعترف بمسألة إلا إذا أيدها الحس » .

من نتائج هذا الانقلاب

كان لهذا الانقلاب آثار فى عالم الواقع :

فقد برزت إلى الوجود عقلية علمية مادية بحتة . تشكل مركز قوة جديداً يناهض الدين . ويجعل العقل وحده سيد الموقف الجدير بقيادة السفينة فى الوقت الذى لا يسمع للدين صوت . ولا يسمح له بإبداء رأى .

لقد انتبذ مكاناً قصياً .. وانحسر سلطان رجال الكنيسة.. وصار الإنسان محور الكون .. وبالتالى .. فكل تفكير يسعى إلى إيجاد قوانين خارج نطاق العالم المادى المشاهد هو تفكير رجعى .

وبات مفهوما ومقررا أن للدين موضوعه .. وغايته .. المخالفين لموضوع العلم وغايته :

فالعقل الباحث عن العلم :

يعتمد على الحس المشاهد .

ولا يقبل إلا ما تثبته التجارب المعملية .

وهو يرفض المسلمات الدينية لأن الدين بناها على مجرد الفرض .

إن الدين فى تقديرهم « عاطفى بحت .. إنه وثبات روحية . غير معتمدة على المقدمات العقلية . وغايته إرضاء حاجات النفس . وقيادة السلوك الخلقى » .

ولقد بلغ الاعتداد بالعلم مداه . عندما اعتبروه ذروة الكمال البشرى بينما كان الدين طوراً بدائياً يمهد له السبيل ! .

يقول « أوجست كونت » :

« العلم هو نضوج الإنسانية . وبهاؤها الأوحد . بينما أن ما سواه إلا طفولتها وشبابها » [١] .

محاولة لعقد صلح بين العلم والدين

تحت ضغط الفطرة الإنسانية المائلة أساساً إلى الحق . المعترفة بوجود قوة عليا تدبر أمور الكون .. أحس الباحثون بالفجوة المصطنعة التى حفروها .. ليكون الدين من ناحية . والعلم خصمه فى ناحية أخرى .. ومن ثم حاولوا تقريب المسافة بينهما. عن طريق عقد معاهدة عدم اعتداء « بين الاثنين » ومع أنهم استهدفوا أن تضع الحرب أوزارها بين الاثنين إلا أنهم ظلوا أوفياء لمبدئهم فى استقلال العلم عن الدين وما يترتب على ذلك من انزواء الأخير .. ليتفرد الأول بالتوجيه والتأثير فى حياة الإنسان .

وكمثال على ذلك . نذكر ما كتبه الدكتور محمد غلاب نقلا عن « ديكارت » ورأيه فى هذه القضية :

قال : « جاء ديكارت فألقى على هذه المشكلة أضواء بقيت زمناً طويلاً تروق العقل الحديث . ولا تزال إلى الآن تنزل عند أكثرها منزلة الرضا والقبول ومجمل هذه الأضواء :

الاعتراف ابتداء باستقلال كل من العلم والدين استقلالاً مؤسساً على مبدأ تباين موضوعيهما .

فموضوع العلم هو الطبيعة .

وغايته هى : غزو القوى الطبيعية والاستيلاء على أسرارها . بمعونة وسيلتيه اللتين يملكهما فى بحوثه ولا يرضى بهما بديلاً وهما :

التجربة ، والرياضة .

---

(١) مجلة الأزهر . جمادى الآخرة ١٣٦٦ .

أما موضوع الدين فهو مختلف تماماً :

إذ هو يقف عنايته - بعد الإيمان بالله - على النفس الإنسانية ومصيرها فيما وراء الحياة الأرضية .

وبناء على هذا المبدأ « الديكارتى » القائل بالتفريق بين هاتين الجهتين يمكن أن ينمو كل منهما فى إطاره الشرعى الخاص . دون أن يصطدما . وهذا يقتضى أن تمحى من بينهما كل مضايقة . وكل سبب من أسباب التنافس .

وإن كان كل منهما يستطيع أن يجد فى الآخر صديقا معينا على حل ما تعقد من مشكلات الوجود .

ثم يقول د . غلاب :

« غير أن ديكارت رغم قوله باستقلال كل من العلم والدين عن الآخر . لا يرى أنهما أجنبيان بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

بل هو على العكس من ذلك .. يؤكد أن هاتين السلطتين تعثران على صلاتهما الطبيعية فى داخل العقل البشرى .

وبيان ذلك :

أن الفكر بعد انتهائه من إثبات وجوده عن طريق قاعدة « أنا أفكر » . إذا أنا موجود .. يقصد إلى إثبات وجود الله الذى هو الموضوع الأساسى للدين . ثم يتنزل من لدن هذا الأسمى إلى إثبات العالم الطبيعى الذى هو موضوع العلم .

وهنا تلتقى هاتان القوتان فى قرارهما المكين وهو الفكر الإنسانى » .

ثم يعلق غلاب :

« ولا ريب أن هذا النهج الذى سلكه ديكارت فى صعوده من الفكر إلى الفكر المجرد عن علائق المادة ثم إلى موجد هذا المفكر . ثم نزوله إلى عالم الحس هو نهج منطقى رياضى . لا يستطيع أشد العلماء ارتياباً أن يجحده أو أن يمارى فى نتائجه الثابتة القويمة » [١] .

---

(١) تحديد صلة العلم بالدين .

مناقشة هذا الاتجاه

أقصى ما وصل إليه « ديكارت » هو إمكان التعايش السلمى بين الدين والعلم .. مع الإصرار على تفرد العلم الكونى بالساحة .. فهو الجدير بها .. بما ملكت يداه من إمكانات البحث والتنقيب . وإذا كان ديكارت منطقياً مع نفسه .. حين يكون شاهد عصره هو .. فما هو عذر المرحوم الدكتور غلاب .. وهو يعلم الفرق الشاسع بين دين ودين .. وأوضاع وأوضاع ؟

إن المعركة التى دارت رحاها فى أوربا لم تكن بين الدين الحق .. والعلم الحق.. لأن الحق لا يناقض الحق .. فالحق واحد لا يتعدد .. وما دام المصدر واحدا وهو اللّٰه تعالى فيستحيل أن يكون هناك تناقض .

ولكن المعركة كانت بين العلماء .. وتجار الدين .. الذين صبوا جام غضبهم على الأحرار من العلماء الذين غشاهم من تعذيب الكهان ما غشى فلما واتت الفرصة العلماء .. وأمسكوا بدفة التوجيه انتقموا لأنفسهم بالضربة التى استهدفت رجال الدين أساساً . ولكنها أصابت معنى التدين فى صميمه .

والموحوم الدكتور محمد غلاب يعرف أن الإسلام برىء من هذا الذى حدث ..

فللإسلام موقفه من العلم الذى حض عليه وله تقديره للعلماء الذين جعل مدادهم كدماء الشهداء .. وكيف كان الكون كله لساناً يلهج بالثناء والدعاء لطالب العلم ؟.. وهو بهذا المفهوم برىء من مثل هذه المعارك التى فرضتها ظروف من صنع غيرنا.. ولا يمكن أن تنسحب علينا .

رأى الدكتور زكى نجيب محمود :

شدد الدكتور نجيب .. حملته على القائلين بالتفرقة بين العلم والدين .. لكنه أيضاً وفى النهاية انتصر لفكرة استقلال كل منهما .. فلكل موضوعه .. ولكل منهجه فى البحث والنظر . وهو ما انساق إليه الدكتور غلاب .

يقول الدكتور زكى نجييب محمود

« أصحيح أنه إما علم .. وإما دين ؟

وعن السؤال كهذا كان أبو العلاء المعرى قد أجاب فى بيتين من الشعر بما معناه : نعم إما هذا . وإما ذاك . ولا جمع بين الطرفين . « العقل والعلم .. والدين».

قال المعرى ما معناه :

إن أهل الأرض هم أحد رجلين :

فإما أن يكون الإنسان ذا عقل وعندئذٍ يتحتم أن يكون بغير دين « على أساس أن الدين يبنى على إيمان القلب» .. وإما أن يكون ذا دين فيتحتم أن يكون بغير عقل.

وهو موقف من المعرى لا يسايره فيه كاتب هذه السطور .. فليس صحيحاً أن الإنسان إما ذو عقل علمى . وإما ذو دين .

بل الصحيح فى الإنسان الواحد يلتقى الدين والعلم . ولا ينفى ذلك أن يكون لكل جانب منها لحظاته .

إلا أنه لهم ثقيل . قاتم . مخيف . دق أوتاده . ونصب خيامه فى صدور الناس. منذ إن كانت الإنسانية فى فجر تاريخها تحبو وذلك هو الوهم الذى خيل للإنسان تناقصاً بين وجدانية القلب ومنطقية العقل .

وشيئاً فشيئاً رسخ فى النفوس بأنه إذا كان عقله ومنطقه الصارم المسنون . لم يكن دينه وما يحيط به من طمأنينة الإيمان أقول : إنّ العالم فى أى جانب من تلك الجوانب الكونية إذا ما حمل بين جوانبه قلباً مؤمناً بالدين ، فيستحيل ألا يزداد إيمانه الدينى نوراً على نور .

لأن علمه بأسرار الكائنات هو فى الوقت نفسه علم بعظمة من خلق هذه الكائنات . وبراها وسواها . وأجراها على سنن منظومة . هى نفسها السنن التى يكشف عنها العلماء . ويطلقون عليها « القوانين العلمية » وهكذا يزداد الإيمان إيمانية عن طريق العلم . والعكس صحيح أيضاً . وهو أن العلم بدوره يزداد علمية عن طريق الإيمان بالدين .

ولم يستطع الدكتور .. زكى نجيب محمود .. أن يتخلص من فكرة استقلال العلم عن الدين .. بعد أن بين إمكان اجتماعهما وثمرة ذلك .

وكان المتوقع أن يكون قرآنياً فى نظرته إلى العلم .. فيخضع العلم الكونى للدين .. لتكون أبحاثه ومناهجه واكتشافاته تحت راية الإسلام السائر إلى سعادة الإنسانية .. بدل أن يشكل العلم دولة داخل دولة لها نظامها !!

قال الدكتور :

« على أن هذا التساند بين علم ودين فى الفرد الواحد من الناس . لا ينفى أن يكون لكل منهما استقلاليته فى الموضوع . وفى المنهج » .

وهو ما ذهب إليه ديكارت .. وما أعجب به الدكتور غلاب .

معنى استقلال العلم

بعد أن دمرت القنبلة الذرية « هيروشيما » « ونجازاكى » قيل لعالم من العلماء الطاقة : لقد استغل تلاميذك ما علمته اياهم فى تخريب العالم ؛ فقال : هذه غلطتى ! لقد علمتهم العلم .. ولم أعلمهم الأخلاق .

ومعنى ذلك أن انفصال العلم عن الدين .. وتخلصه من قيمه وأخلاقه جعل منه وحشاً كاسراً .. أو مجنوناً فى بيت من زجاج !

ولو سلمنا إمكان انفصال العلم عن مصدره الإيمانى .. فليس هو دين الإسلام الذى حض على العلم ونوه بالعلماء .. فالجهة منفكة حتماً .

ثم هل صحيح أن للدين منهجه ، وللعلم الكونى منهجه ؟ !

لقد تعلمنا من المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى أن العلم الباحث عن اليقين قرآنى فى منهجه .. من وجوه :

١ – فالقرآن الكريم لا يقبل شيئاً إلا ببرهان قاطع وذلك قوله تعالى : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ وكذلك العلم .

٢ – القرآن يرفض التقليد .. ولا يعرف الحق بالرجال .. ولكنه يعرف الرجال بالحق وقد أنكر على قوم اتبعوا الرأى لا لأنهم عقلوه . ولكن لأن آباءهم فعلوه .

٣ – يحاذر العلم أن يجعل يقينيا ما ليس بيقينى .. وأن ينزل الظن منزلة اليقين.. أو التخمين منزلة الظن والترجيح .. وهو متأثر فى ذلك بالقرآن الكريم .

وإذن .. فقد سقط الذين قالوا للإنسان تخير لنفسك ما يحلو :

إما المنهج الإلهى .. والتخلى عن ثمرات الحضارة .. وإما التمتع بثمرات الحضارة .. والتخلى عن منهج اللّه .. ذلك بأنهما لا يجتمعان .

والذين يقررون ذلك .. لا يفهمون مقصود المنهج القرآن الرامى إلى تكوين إنسان يحسن التعامل مع الكون الفسيح .. والتجانس معه . واستغلال سنن اللّه تعالى المسيرة له .. لكى يخضع الكون كله لمنهج اللّه تعالى .

وكل مخترع ينشئه إنما هو مسخر لسعاده الإنسان الذى يعيش حياته سعيداً بمنهاج يعمر باطنه بالأمن .. ويعمر خارجه بالرضا !

وإذن فليس صحيحاً أن للعلوم الطبيعية مجالها .. وللعلوم الدينية مجالها .. بل أن المسلم بمقتضى إيمانه مطالب أن يسبح فى الأرض .. بل ويغوص فيها استخراجاً لكنوزها وانتفاعاً بعناصرها فى تذليل حياته والتمكين لدينه (١) .

القرآن والعلم

واعتقد أن الرد الحقيقى على هذه الثنائية . هو اتباع المنهج القرآنى العلمى فى إبطال الباطل .. وإحقاق الحق : فقد كان يعرض وجهة نظر الخصم كاملة .. ثم يكر عليها ليجعلها هباء منثورا ..

وهو ما سوف نلتزم به الآن حين نرد هذه الشبة ببيان ما يلى :

معنى العلم فى القرآن

مقصود العلم .

وسائله .

مسؤولية الأمة الإسلامية اليوم .

وسوف تبدو ملامح العلم القرآنى واضحة .. تتضاءل بها شبهة الباطل افتضاحا.. بقدر ما تتبختر بها حجة الحق اتضاحاً !!

معنى العلم :

« العلم : نقيض الجهل » (٢) .

و « علمه يعلمه علماً : عرفه حق المعرفة » (٣) .

والعلم ضربان :

الأول : إدراك ذات الشىء .

والثانى: الحكم على الشىء بوجود شىء هو موجود له أو نفى شىء هو منفى عنه.

---

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع فى مقدمة « فى ظلال القرآن » ج ١١ .

(٢) لسان العرب مادة علم .

(٣) بصائر ذوى التمييز .

فالأول : هو المتعدى إلى مفعول وأحد :

قال تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

والثانى : المتعدى إلى مفعولين . نحو قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

وفلان « علام وعلامة : إذا بالغت فى وصفه فى العلم . أى جداً . والهاء للمبالغة . كأنهم يريدون : داهية من قوم علامين وعلام .. قال ابن جنى : رجل علمة وإمرأة علامة . لم تلحق الهاء لتأنيث الموصوف بما هى فيه . وإنما لحقت لإعلام السامع أن هذا الموصوف بما هى فيه قد بلغ الغاية والنهاية . فجعل تأنيث الصفة أمارة لما أريد من تأنيث الغاية والنهاية » [1] .

ولا يظفر بوصف عالم إلا ما كان العلم ملكة فيه .. أما المبتدئ فيقال فيه : متعلم.

قال ابن جنى لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزوالة له وطول الملابسة . صار كأنه غريزة. ولم يكن على أول دخوله فيه. ولو كان كذلك لكان متعلماً لا عالماً»[2].

« والعلم منزلة من منازل السالكين . إن لم يصبه السالك من أول قدم يضعه . إلى آخر قدم ينتهى إليه . يكون سلوكه على غير طريق موصل . وهو مقطوع عليه. ومسدود عليه سبل الهدى والفلاح » [3] .

والفرق بين العلم والمعرفة

يقول الفيروزبادى [4] .

« المعرفة : إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره . وهو أخض من العلم » ويقال : فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد . لما كان معرفة البشر لله هى بتدبر آثاره دون إدراك ذاته .

ويقال : الله يعلم كذا . ولا يقال : يعرف كذا . لما كانت المعرفة تستعمل فى العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر وتدبر ..

---

(١) لسان العرب.

(٢) لسان العرب .

(٣) لسان العرب .

(٤) البصائر : مادة عرف .

ولذلك « اختار الله لنفسه اسم العلم وما يتصرف منه كالعالم . والعليم والعلام..
ومعلوم أن الاسم الذى اختاره لنفسه أكمل نوعى المشارك له فى معناه » .
والفرق بين المعرفة والعلم من وجوه :
أحدهما : أن المعرفة تتعلق بذات الشىء . والعلم يتعلق بأحواله . فنقول :
عرفت أباك . وعلمته صالحاً .

ولذلك جاء الأمر فى القرآن بالعلم دون المعرفة . كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلا اللّهُ ﴾ [محمد : ١٩] .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٦ - الأنفال : ٢٥] .
فالمعرفة : تصور صورة الشىء ومثاله العلمى فى النفس .
والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه .
فالمعرفة : نسبة التصور . والعلم : نسبة التصديق :

الثانى : أن المعرفة فى الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل عرفه .

أو تكون لما وصف له بصات قامت فى نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها : عرفه . قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لّمْ يَلْبَثُوَاْ إِلاّ سَاعَةً مّنَ النّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٥] .
وقال تعالى ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمّا جَآءَهُمْ مّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] .

فالمعرفة نسبة الذكر النفسى . وهو حضور ما كان غائباً عن الذاكرة ولهذا كان ضدها الإنكار . وضد العلم الجهل قال تعالى :

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل : ٨٣] .

الثالث : أن المعرفة تفيد تمييز المعرف عن غيره . والعلم يفيد تمييز ما يوصف به غيره . وهذا الفرق غير الأول : فإن ذلك - أى الأول - يرجع إلى إدراك الذات من غيرها . وتخليص صفاتها من صفات غيرها .

الفرق الرابع : أنك إذا قلت : علمت زيدا . لم تفد المخاطب شيئاً . لأنه ينتظر تخبره على أى حال علمته .

فإذا قلت : كريماً وشجاعاً حصلت له الفائدة .

وإذا قلت : عرفت زيداً . استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره ولم يبق ينتظر شيئاً آخر .

وهذا الفرق فى التحقيق إيضاح الذى قلبه .

الفرق الخامس : أن المعرفة : علم يعين الشىء مفصلاً عما سواه . بخلاف العلم . فإنه قد يتعلق بالشىء مجملاً .

فلا يتصور أن يعرف اللّه البتة . ويستحيل هذا الباب بالكلية . فإن اللـه سبحانه لا يحاط به علماً . ولا معرفة . ولا رؤية .

فهو أكبر من ذلك وأعظم . قال تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

موضوع العلم القرآنى :

يتسع مفهوم العلم فى القرآن الكريم ليشمل علم الشريعة وعلم الطبيعة على عكس ما قرر الباحثون الأجانب .. والذى أشرنا إليه آنفاً .

فالعالم فى القرآن هو العالم بالشريعة .. والعالم أيضاً هو الباحث فى أسرار المادة وطبائعها . وخواصها والعلاقات بينها .. ثم عن حقيقة المادة متى أمكن ذلك.

والآيات الكريمة شاهدة بذلك .. والتى نورد بعضها لنرد بها فى الوقت نفسه على من زعم قصر العلم الدينى على أسرار النفس الإنسانية لا يتعداها :

يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ : ١٤] .

فالحق سبحانه وتعالى يعرض مشاهد الكون أمام الإنسان :

ليتفكر .. ثم ليعقل ما يستنبطه من سنن الكون لمصلحته .. ثم ليظل على وعى بما وصل إليه .. واصلاً به إلى شكر المنعم سبحانه .. والشكر هو ثمرة العلم فى النهاية.

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٣ – ٥].

فالآيات هنا تطلق للفكر العنان .. ليتصور .. ويحلل .. سابحاً فى ملكوت السموات والأرض مستنزلاً من السماء رزقه.. ومستخرجاً من الأرض مادة حياته..

متأملاً فى الرياح وسنن تصريفها .. كما تأمل فى السفن ونواميس سيرها .. راجعاً بذلك كله إلى خالقه سبحانه . الذى علمه ما لم يكن يعلمه .

ثم نقرأ فى سورة فاطر قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧ – ٢٨] .

ومعلوم أنه لا يعرف سر نزول الماء من السماء إلا بعلم الطبيعة وعلم الأرصاد الجوية .

ولا يعرف تركيب الماء وخواصه إلا بعلم الكيمياء .

ولا يعرف الإنبات ، والإثمار . وما أثر فيهما إلا بعلم النبات .

وعلم الكيمياء الجوية .

ولا يعرف ما الجبال . ولا ما طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض وعلم الكيمياء .

ولا يعرف اختلاف أجناس الناس والدواب إلا بعلمى أصل الشعوب والحيوان إلخ .

وعلى هذه الآية فقس غيرها . فهذه العلوم الطبيعية ليست قرآنية الموضوع فقط.. بل هى لابد منها لتفسير الآيات الكونية فى القرآن » [1] .

---

(١) من مقال للدكتور محمد أحمد الغمراوى .

ومعنى ذلك أننا محتاجون إلى علماء فى كل هذه التخصصات لفهم آيات القرآن الكريم واستنباط ما تشير إليه من حقائق وسنن . وتشتد حاجتنا إليهم اليوم فى زمان لا تنتشر الدعوة فيه بمجرد الإرشاد والتوجيه . بل إنها لتنتصر فى المعترك الدولى بما تملك من كنوز يكشف عنها العلماء المتخصصون . والذين يأخذون مكانهم مع إخوانهم من الشريعة والبيان لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلاً .

بل إن الحق تعالى يصف بالخشية بل يقصرها هنا على من تعمق فى هذه الأسرار وبحثاً وتنقيباً وهم أجدر بوصف العلم ممن لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون .

ونتأمل قوله تعالى فى سورة الروم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

وتشير الآية الكريمة إلى أن اكتشاف ما فى السموات والأرض . واختلاف الألسنة والألوان من أسرار وأطوار . لا يقدر عليه إلا العالمون القادرون على خوض هذه الغمرات . وارتياد هذه المجاهيل بما آتاهم اللّه من وسائل الهداية والإرشاد .

رأى الغزالى :

فى بيان التلازم بين العقل والشرع .. وضرورة اجتماعهما ليتم معنى التدين الصحيح يقول الإمام الغزالى :

« إن العقل لا يهتدى إلا بالشرع . والشرع لا يتبين إلا بالعقل .

فالعقل : كالأساس . والشرع : كالبناء . ولن يغنى أساس . ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس .

العقل : كالبصر . والشرع : كالشعاع . ولن يغنى بصر ما لم يكن شعاع من خارج .

ولن يغنى الشعاع ما لم يكن البصر .

العقل : كالسراج . والشرع كالزيت الذى يمده .

فما لم يكن زيت ثم لم يحصل سراج . وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت .

ويقول :

« الشرع عقل من الخارج . سلب اللّه تعالى اسم العقل عن الكافر فى غير موضع من القرآن الكريم . كقوله سبحانه ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ولكون العقل شرع من الداخل قال تعالى فى وصفة : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم : ٣٠] ، فسمى العقل ديناً . ولكونهما متحدين قال سبحانه: ﴿ نور على نور ﴾ يعنى نور العقل . ونو الشرع»[١].

مقصود العلم فى القرآن

يستهدف العلم التفكر .. والتذكر .. والتفقه .. ثم الاعتبار فى النهاية .. والذى يتوج بالعمل طبق ما تبين من حقائق .

إن الحق تعالى يبين فى سورة فاطر :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . [فاطر : ٢٨] .

ثم ذكر فى سورة النازعات أن الاعتبار ناشىء عن هذه الخشية

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ [النازعات : ٢٦] .

ومن ثم فكل علم لا يقود إلى العمل لا يعترف به الإسلام :

« روى الأزهرى عن سعد بن زيد عن أبى عبد الرحمن المفرى . فى قوله تعالى : ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ قال :

لذو عمل بما علمناه . فقلت : يا أبا عبد الرحمن .. فممن ممن سمعت هذا ؟ قال: من ابن عيينة . قلت : حسبى

وروى عن ابن مسعود أنه قال :

ليس العلم بكثرة الحديث . العلم بالخشية . قال الأزهرى : ويؤيد ما قال اللّه عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقال بعضهم : العالم الذى يعمل بما يعلم .

قال وهذا يؤيد ابن عيينة .

يقول الفخر الرازى مبيناً مقصود العلم . وهو العمل به :

---

(١) عن جهاد الدعوة ١٨٨ – ١٨٩ .

« إن العلم العمل . والعمل العلم :

فالعلم يحصل ليعمل به . لما جاء :

[إذا عمل العالم الصالح علم ما لم يكن يعلم] .

فيعلم الإنسان مثلاً قدرة اللّه بالدليل وعلمه وأمره . فيحمله الأمر على الفعل . ويحثه عليه علمه .. فعلمه – بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه .

فإذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات اللّه ومعلومات اللّه تعالى ما لم يعلمه أحد إلا بإطلاع اللّه عليه وبكشفه له ذلك فيؤمن .

وهذا هو المعنى فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] .

فإذا آمن المكلف بمحمد ﷺ بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحاً حمله عقله على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ﷺ . ولم يجد فى نفسه شكاً . وللمؤمن من المرتبة الأولى أحوال . وفى المرتبة الأخيرة أحوال .

أما فى الإيمان باللّه : ففى الأولى يجعل اللّه معبوداً . وقد يقصد غيره فى حوائجه .. فيطلب الرزق من زيد وعمرو . ويجعل أمراً سبب لأمر .

وفى المرتبة الأخيرة يجعل اللـه مقصوداً ولا يقصد غيره ، ولا يرى إلا منه سره وجهره . فلا ينيب إلى شىء فى شىء . فهذا هو الإيمان الآخر باللّه ، وذلك الإيمان الأول . وأما ما فى النبى ﷺ فيقول أولاً : هو صادق فيما ينطق .

ويقول آخراً : لا نطق له إلا باللّه . ولا كلام يسمع إلا منه .

فهو فى الأول يقول بالصدق ووقوعه منه . وفى الثانى بعدم إمكان الكذب منه..

فى المرتبة الأولى يجعل الحشر مستقبلاً والحياة العاجلة حالاً وفى المرتبة الأخيرة يجعل الحشر حالاً والحياة الدنيا ماضياً . فيقسم حياة نفسه فى كل لحظة ويجعل الدنيا كلها عدما لا يلتفت إليها . ولا يقبل عليها » [١] .

الخشية موقف إيجابى :

إذا تأملنا معنى الخشية الناشئة عن العلم تبين لنا كيف كانت حركة إيجابية آخذة بيد الخاشى إلى العمل الإيجابى طبق منهج اللّه ؟.

---

(١) تفسير سورة محمد .

وإذا كان الخوف حركة قد تكون هروباً من الواقع .. عجزاً عن مواجهته .. فإن الخشية تأخذ مكانها بين الفضائل الإنسانية دافعة المسلم إلى العمل .. طبق ما علم :

قالوا : الخشية « خوف يشوبه تعظيم » (١) .

وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه .

ولذلك خص العلماء بها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وإذا كان الخائف يرجف فؤاده.. فيهرب.. فإن الخاشى للّه يأخذ موقفاً إيجابياً .

« فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك . له حالتان :

أحدهما : حركة الهرب منه . وهى حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه وهى : الخشية (٢) .

وكلما اتسعت معارف الإنسان .. عظمت خشيته .. وعظم الخشية دافع إلى العمل الصالح بطاعة من يخشى .. « كما قال النبى ﷺ : إنى لأعلمكم باللّه . وأشدكم له خشية » وقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرش . ولخرجتم إلى الصعدات – الطرق – تجأرون إلى اللّه تعالى » .

فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهروب والإمساك – عما يوجب الخوف – وصاحب الخشية إلى الاعتصام بالعلم .

ومثلهما كمثل من لا علم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق :

فالأول : يلتجئ إلى الحمية والهرب :

والطبيب : يلتجئ إلى معرفته بالأدواء . وكل واحد إذا خفته هربت منه . إلا الله .. فإنك إذا خفته هربت إليه . فالخائف هارب من ربه إلى ربه » (٣) .

والذين يخشون ربهم يوظفون الخشية لتكون عملاً نافعاً للأمة فى مختلف المجالات .. ويبلغ بهم هضم أنفسهم درجة يحذرون فيها أن ترد أعمالهم عليهم مع أنهم بذلوا فيها أقصى ما يستطيعون :

---

(١) بصائر ذوى التمييز .

(٢) بصائر ذوى التمييز .

(٣) بصائر ذوى التمييز مادة خش .

يقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ – ٦١] .

وعند الإمام أحمد فى مسنده .

وفى جامع الترمذى عن عائشة – رضى اللّـه عنهـا – قـالت : قلت : يارسول اللّه : الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلـة .. أهـو الـذى يسـرق – ويزنـى ، ويشـرب الخمر ؟ .

قال : « لا يا ابنة الصديق :

ولكنه الرجل : يصلى ويصوم ويتصدق . ويخاف ألا يقبل منه » [1] .

[عندما ينفصل العلم عن القاعدة :]

عندما ينفصل العلم عن قاعدته الإيمانية يضل طريقه .. ولا يكون له هدف إنسـانى يسعى لتحقيقه .. بل يصير حينئذ تعبيراً عن نزوات متقلبه لا تستهدف خير الإنسان ..

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَحَاقَ بِه مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] .

تتحدث الآية الكريمة عن قوم مكنهم اللّه تعالى مـن ناصيـة الحيـاة زمنـاً .. بمـا أعطاهم من وسائل هذا التمكين وهى :

الأسماع .. والأبصار .. والأفئدة .. ليحصلوا بهذه الوسائل ما يأتى :

معرفة تلك النعم .. ثم الاستدلال بها علـى المنعم سبحانه . ثـم المواظبـة علـى شكر مانحها سبحانه .

بيد أنهم عطلوا هذه الملكات . ولم يحسنوا استعمالها فيما خلقت له . لماذا ؟

(١) بصائر ذوى التمييز مادة خش .

لأنهم جحدوا بآيات اللّه تعالى .. أنكروها مع اعترافهم بها فطرة . فلاقوا سوء مصيرهم . ولم ينتفعوا بنوافذ العلم فى كيانهم .. لأنهم خرجوا عن القاعدة الإيمانية التى ينبغى أن تنطلق هذه الوسائل منها .. فانطلقت من فراغ .. وفى فراغ .. فلم تحقق شيئاً .. أما يبهر العيون مما صنعته .. فلا قيمة له بعد أن غاب الرصيد الذى يجعل للحضارة قيمة .

ومما جاء فى التنديد بالعلم الناقص قوله تعالى :

﴿ وَعْدَ اللّهِ لاَ يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٦ - ٧] .

« يعنى علمهم منحصر فى الدنيا . وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هى . وإنما يعلمون ظاهرها . وهى ملاذها وملاعبها . ولا يعلمون باطنها . وهى مضارها ومتاعبها . ويعلمون وجودها الظاهر . ولا يعلمون فناءها » وهذا هو العلم الناقص فى كمه ونوعه :

فهو علم محصور فى نطاق الدنيا .. لا يتجاوزها إلى العلم بالآخرة وهى الأنفع والأبقى .

ثم هو علم مشغول بالرفاهية والملذات الصارفة عن معالى الأمور . ومن ثم فلا يحقق خشية . ولا يحض على عمل صالح .. وبالتالى لا تنهض به أمة ..

وما أكثر الذين يعلمون من قشور الدنيا .. ولكنهم فى منطق القرآن لا يعلمون :

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء. وأنهم يعرفون الكثير.

ذلك أن علمهم سطحى . يتعلق بظواهر الحياة . ولا يتعمق سننها الثابتة . وقوانينها الأصلية . ولا يدرك نواميسها الكبرى . وارتباطاتها الوثيقة .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا ﴾ ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر . ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه .

وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير . مهما بدا للناس واسعاً شاملاً . يستغرق جهودهم بعضه . ولا يستقصونه فى حياتهم المحدودة . والحياة كلها طرق صغيرة فى الوجود الهائل . تحكمه سنن ونواميس مستكنة فى كيان الوجود وتركيبه .

والذى لا يتصل قلبه بضمير هذا الوجود . ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التى تصرفه - بأمر ربها وكأنه لا يرى .

ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة . ولكنه لا يدرك حكمته . ولا يعيش بها ومعها . وأكثر الناس كذلك [١] .

وسائل العلم

أطلق القرآن العنان للإنسان بعد ما زوده بصلاحية التفكير والاستنباط ليتملى آيات اللّه تعالى فى الكون وصولاً إلى النواميس المسخرة له بإذن خالقها سبحانه :

يقول سبحانه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

وبهذا العلم فاق الملائكة وفاق الجن أيضاً :

قال تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠].

فقد استبطأ هذا العالم ما عرضه الجن من نقل عرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، وطلب الإذن للإتيان به فى مدة أقل من رد الطرف [٢] .

ولم يكن لعلم الإنسان حد يقف عنده .. فهذا هو الحق تعالى يعلم رسوله ﷺ - والمؤمنون معه - أن يطلب زيادة علمه دائماً :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : ١١٤] .

ولكن تحصيل العلم . ودوام التزود منه له وسائله المشروعة ومنها :

أ - السمع .

ب - سؤال أهل الذكر .

د - العقل .

وتقرأ فى ذلك قوله تعالى :

---

(١) فى ظلال القرآن تفسير سورة الروم .

(٢) على رأى من قال : إنه بشر وليس جنياً .

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلّ أُولـَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

يقول البيضاوى : « ولا تقف » .. ولا تتبع .. ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب .. (إن السمع ..) أى : كل هذه الأعضاء . فأجراها مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها . شاهدة على صاحبها (١) .

ومما يؤكد هذه المسؤلية ما نلاحظة من إفراد السمع ، والبصر ، والفؤاد هنا .. إشارة إلى أن كل فرد مسئول عن سمعه هو . وبصره شخصياً بالإضافة إلى مسؤليته كعضو فى الجماعة التى ينتمى إليها .

تأملات فى الآية الكريمة :

١ – يقول بعض العلماء :

« من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم . فحسبك جهلاً من عقلك أن ينطق بما لا يفهم » .

والآية الكريمة تنتبة المسلم إلى الاحتياط فلا يقتحم قضية ليدلى فيها برأى إلا ومعه عدة هذا الاقتحام وهى : الأدلة التى هى مرتكزك عند الانطلاق .. والبحث والمناقشة . وإن لم يكن معك دليل فلا تخبط خبط عشواء .

٢ – وعلى الباحث أن يحشد للمسألة العلمية كل مداركه : السمع . والبصر والعقل . ليستطيع بمجموعها أن يسلط الضوء على جوانب المسألة المعروضة فلا تبقى زاوية خافية .

٣ – وتفرض عليك هذه المسؤولية ألا تقتحم بها الغيب .. فليس هو من مجالات بحثها . وإنما ذلك للوحى الأعلى .

٤ – لا تمنح سمعك وبصرك وفؤادك إلا للقضية التى قام عليها برهان يقينى .

٥ – متى ظهر الحق ولو على يد غيرك . فسلم به تسليماً تعلن به أن ولاءك للحق أولّ وأخيراً .

يقول سبحانه وتعالى فى معرض مدح إبراهيم عليه السلام لما أذعن للحق بعد ما تبين :

---

(١) البيضاوى تفسير سورة الإسراء .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] وقد شددت الآيات الكريمة النكير على من تنكب هذا الصراط المستقيم ، ولم يخضع لهذه الضوابط .

نعى على الذين يكذبون بمسألة قبل أن يبحثوها ويعرفوها :

يقول سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩] .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الروم : ٢٩] .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] .

ثم أنكر على قوم يجادلون بغير دليل إلا الهوى والغرض :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : ٨] .

ثم حذر سبحانه تعالى من اتباع الظن فى قوله تعالى :

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ [النساء : ١٥٧] .

وقد نعى على قوم تبين لهم الحق فأعرضوا :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ١٤] .

وحذر المؤمنين من مسلكهم :

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ويحذر رسول الله ﷺ بوجه خاص :

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

سؤال أهل الذكر :

فى معرض الحث على التفكير السليم الموصل إلى الحق فى موضوع النزاع يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] .

يقول الشوكانى [1] .

---

(١) فتح القدير .

كانوا يقولون : إن محمداً ﷺ مجنون فقال اللّه سبحانه : قل لهم : اعتبروا أمرى بواحدة . وهى : أن تقوموا للّه ، وفى ذاته مجتمعين :

فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنتصادق هل رأينا بهذا الرجل من جنة ؟ أى جنوناً أو جربنا عليه كذباً ؟

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكر وينظر . فإن فى ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق . وإنه رسول من عند اللّه » .

ومن شأن هذا الأسلوب حماية المتفكر مما يحدث عادة فى الاجتمعات الحافلة بأشتات البشر . والتى لا تعين على تفكير حينئذٍ سليم :

يقول البيضاوى :

« فإن الازدحام يشوش الخاطر . ويخلط القول »

وتسارع الآية الكريمة بإثبات نتيجة هذا التفكير السليم والتى لا بد أنهم به واصلون إليها .. تثبتها حتى ولو لم ينطقوا بها .. لأن تفرغ العقل الراغب فعلا فى الهداية لا شك ملتق بها فى النهاية .

ذلك « بأن ما عرفوا من رجاحة عقله كاف فى ترجيح صدقه ..

فإنه لا يدعه أن يتصدق لادعاء أمر خطير . وخطب عظيم . من غير تحقق ووثوق برهان . فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة ؟ .

مسؤولية المتعلم :

وإذا لم يسفر التفكير عن الحق فقد أتاح لك الإسلام أن تسأل .. بشرط أن تسأل القادر على الإجابة من العلماء الثقات ولو كلفك ذلك مشقة أو مالاً :

وهو ما تفرضه الأمانة العلمية :

قال الإمام النووى :

« يجب عليه – أى: على المستفتى» البحث الذى يعرف به أهلية من يستفتية للإفتاء.

وإذا لم يكن عارفاً بأهليته فلا يجوز له استفتاء من انتسب إلى العلم . وانتصب للتدريس والإقراء . وغير ذلك من مناصب العلماء بمجرد انتسابه لذلك .

وإن لم يجد فى بلده من يصلحة لأن يستفتيه . وجب عليه الرحيل إلى من يفتيه وإن بعدت داره » (١) .

---

(١) المجموعة ١ / ٨٩ .
والموافقات ٤ / ١٧٥ صفحة الفتوى .

مسؤليته أهل الذكر :

ولا بد للعالم المسؤول من توافر أمور تتعلق بورعه وحسن سيرته وطريقته واعتدال مزاجه .. وإلا أمسك عن الإجابة .

قال ابن القيم :

« ويكون مع ذلك حسن الطريقة . مرضى السيرة . عدلاً فى أقواله وأفعاله . متشابه السر والعلانية . فى مدخله ومخرجه وأحواله » .

على أن اعتدال المزاج له أهميته القصوى فى الاهتداء للحق :

قال ابن حمدان الحنبلى :

« ليس له الفتوى فى حال شغل قلبه . ومنعه من التثبيت والتأمل لغضب أو جوع أو عطش . أو غم . أو خوف . أو حزن أو فرح غالب . أو إنعاش . أو ملل أو مرض أو حر مزعج . أو برد مؤلم .

فمتى أحسن باشتغال قلبه . وخروجه عن حال اعتداله أمسك عن الفتيا .

فإن أفتى فى شيء من هذه الأحوال . وهو يرى أن ذلك لا يمنعه من إدراك الصواب صحت فتياه . وإن خاطر بذلك فالترك أولى [1] .

فى مجال التطبيق :

كان الإمام مالك – رحمه اللّه – وهو مفتى المدينة .. يحتاط فى فتياه . وربما مكث أياماً وهو يبحث عن وجه الحق فى مسألة ما . ولا يجد فى ذلك غضاضة أو حرجاً.

وإنما الحرج فى خوض الغمرات بلا استعداد وهو ما كان يتحاشاه – رضى اللّه عنه – قال :

« ربما وردت على المسألة من المسائل تمنعنى من الطعام والشراب والنوم ».

فقيل له :

يا أبا عبد اللّه :

واللّه ما كلامك عند الناس إلا نقر على الحجر :

ما تقول شيئاً إلا تلقوه منك .

---

(١) صفحة الفتوى ص ٣٤ .

قال : فمن أحق أن يكون هكذا إلا من كان هكذا ؟ .

والمعنى :

إن العالم الذى وصلت ثقة الناس به إلى هذا الحد .. يجب عليه أن يظل محتفظاً بهذه الثقة بدوام التحرى والتدقيق متميزاً عن غيره ممن يسارعون فى الإجابة بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

العقل فى القرآن : « أكبر القرآن العقل إكباراً دونه أى إكبار :

حتى لقد أوجب الشرع تأويل النص إلى ما يطابق العقل إذا كان ظاهر النص يتناقض ما ثبت قطعياً بالعقل :

وكلمة « قطعياً » هنا مهمة .. فلا يجوز تأويل النص من أجل ما هو راجح عند العقل . لأن العقل نفسه يجيز بطلان ذلك الراجح . فلا حكمة هناك فى تأويل النص الشرعى من أجل ما قد يثبت المستقبل أنه من الباطل

والأمثلة التى ضربت فى الشرع لوجوب التأويل كلها من باب قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] فإن نسبة الجارحة إلى اللّه تعالى محال .

فوجب تأويل الآية عن ظاهرها إلى معنى من المعانى المجازية اللائقة به تعالى فأولوا اليد إلى القدرة .

وإذا بدت أهمية العقل كميزان يميز اللّه به الخبيث من الطيب فما المراد بالعقل هنا ليظل كذلك صالحاً لأداء وظيفته فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ؟

يجيب عن هذا السؤال الدكتور الغمراوى فيقول :

« والمراد بالعقل .. ليس هو العقل الخاص .. عقل الفرد .. ولكن العقل العام.. أو العقل المطلق .. الذى ضبطت قوانين تفكيره عن طريق الاستقراء وأودعت ما يسمى بعلم المنطق .

هذا العقل هو الحكم فى الدين .

وهو الحكم فى العلم » .

صلاحيات العقل :

كان الإسلام يعمر الأرض بحضارته يوم تفاعل العقل مع الواقع .. وهو المجال الحى للتدين الحق .. فكما كلفنا اللّه بحفظ العلم النقلى : الكتاب والسنة .. فقد كلفنا

أيضاً بحفظ العلم الوضعى الواقعى .. وكان تجاوب العقل مع الحياة الجارية سر عطاء الإسلام المتجدد .. والذى يفيض طبق سنته تعالى فى إنشاء الحضارات وانهيارها:

« إن سلوك الإنسان فى الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً : يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه . لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره » الشيخ عبد الحميد بن باديس – كتاب ابن باديس لمحمود قاسم ص ٨٨ .

وتقاعس العقل الإسلامى عن فهم الواقع ومعايشته لحساب الإسلام يعرض أمتنا للخطر :

ذلك « بأن كل فراغ أديولوجى لا تشغله أفكارنا ينتظر أفكاراً منافية معادية لنا تتربص الشر بنا . لتنسف من الأساس وجودنا الحضارى . وتستبدله بما عندها من أطر ثقافية وسياسية واقتصادية وتربوية ليتأصل الوجود الاستعمارى فى جسم الأمة». مالك بن نبى إنتاج المستشرقين / ٨٥ .

ونحن مدعوون لتوظيف العقل الإسلامى من أجل غد أفضل نحقق فيه وجود الأمة . بقدر ما نفوت على الأعداء مكرهم السىء بنا .

« إن مجتمعنا أصبح يعانى فى قيادته أزمة أخلاقية وفكرية ، تجعله بصفة عامة لا يحقق للأفكار ثبوت حصانتها وفعاليتها حتى أنها تكون معرضه للدس ، إما لضعف أخلاقى يحيط بها وإما لضعف فكرى يخذلها غير أننا إذا ما فحصنا هذه الحالة على ضوء تجربة طويلة فسوف نجد أن الضعف الفكرى هو أقوى العوامل تأييداً على ضوء تجربة طويلة ومساعدة لمساعى الاستعمار فى جبهة الصراع الفكرى وبالمقابل يكون النجاح. الفكرى وسيلة للقضاء على النفوذ والسيطرة الاستعماريين ، ولكن بشرط ، أن يكون الفكر انعكاساً لقيم وتعبيراً عن تواصل حضارة المجتمع السابقة .

وفى الواقع العربى الإسلامى . يشكل الفكر الإسلامى بروحه القرآنية الفعالة وبثوابت القواعد التشريعية المنزلة فيه ، وبأحكامه العامة المرنة التى تتجاوز حدود الزمان والمكان ، يشكل هذا الفكر الإسلامى التجربة الحضارية التى تركت بصامتها على المستوى العالمى الشامل . واليوم حتى يتحقق التحرر والنهوض لابد من حل مشكلة الأفكار وربطها وتفاعلها مع الواقع وذلك بأنه « علينا أن نستعيد أصالتنا

الفكرية ، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادى والسياسى » (١)

فهم الواقع : من مقومات العمل التغييرى :

إن مدى نجاح أى حركة تغيير فى مقولاتها ومنجها ، يرتبط أشد الارتباط بمدى فهم العالمين فيها للواقع المراد تغييره ذلك لأن التغييريبتدىء بنقد الواقع نقداً يفضى إلى الحكم عليه كلياً أو جزئياً بالبطلان وينتهى بإلغائه وإحلال صور أخرى محله ، فهو بهذا المعنى يتنزل منزلة السبب بالنسبة للعمل التغييرى ، ولابد لفهم المسبب من فهم عميق للسبب .

وإن تغيير الواقع الإنسانى فى الفكر والاجتماع والسلوك عمل يبلغ من الصعوبة والعسر ما يجعل الكثير من حركات التغيير تبوء بالفشل فى تحقيق ما رامت إليه من أهداف ، وذلك لأن للواقع سطوة على النفوس ينشأ منها الاستمراء والألف فينزع إلى الاستقرار والثبات ويتأبى على الإزالة والتغيير .

وهذه السطوة التى تكون للواقع هى التى تفسر ما يلقاه أصحاب الدعوات – وفى مقدمتهم الرسل والأنبياء – من حجم المصاعب فى هدم القديم وغرس الجديد ، تلك المصاعب الناشئة من تصميم الواقع على الثبات تصميماً صوره قوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٢] فنقطة البداية على كل عمل تغييرى هى فهم الواقع ، والظروف المحيطة به ، والإمكانات المتوفرة فيه ولاشك أنه ما من حركة تغييرية إلا واحتاجت إلى قضية رئيسية ، وكلما كانت هذه القضية رامية الجذور فى الواقع متجاوبة مع آمال الناس وتطلعاتهم، موجهة إلى صميم الأزمة الواقعية . توافرت عوامل النجاح والتوصل لتلك الحركة، ذلك أن نجاح عمل تغييرى وفعاليته فى الحياة مرتبط بما يكتب له من التنزيل فى الواقع المعاش ، بما يتحقق له من الوجود فى الأذهان فقط (٢) .

شهادة المنصفين :

حين طبق المنهج القرآنى العلمى . عاشت الأمة الإسلامية أمجد عصورها .. عندما امتلكت ناصية العلم بمعناه الشامل فتدانت لها الحياة ذلك بأن أول لوازم التقدم:

---

(١) مالك بن بنى – إنتاج المستشرقين ٦٣ .

(٢) عن مجلة منار الإسلام : جمادى الآخر ١٤٠٨ .

تحقيق : يتيح فرصة تطبيق ما نتعلمه ، ويتيح لنا أن نستخدم الموجودات تحت قانونها بالذات لمصلحتنا الخاصة . حيث نتمكن من امتلاك الطبيعة . والهيمنة عليها [١] .

وقد تعلمت أمتنا .. ثم طبقت ما تعلمته .. فهيمنت على الحياة زمناً طويلاً .. وقد شهد المنصفون بما كان للإسلام من عصور ذهبية : أما الواقع فيشهد : بأن أول مرصد أقيم فى أوروبا هو الذى أسسه العرب فى « إشبيليا » من بلاد الأندلس .

وقد أهدى أحد خلفاء المسلمين ساعة دقاقة إلى ملوك أوروبا . فانزعج من صوتها . وضجت حاشيته مذعورة .

وزعم له رجال الدين أنها مسكونه بالشياطين ؟!

ومما شهد به المنصفون ما قاله الأستاذ فريد وجدى :

« لا ترى قاعدة دلت عليها التجارب . ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر .. يكون لها أثر فى رقى الإنسان . وتحسين بناء العمران إلا وهى صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية . حتى ليخيل للرائى أن كل خير ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية فى سبيل رفعه شأن الإنسانية لا يقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الإسلامية .. ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىَ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥١].

إن العرب والمسلمين فى صدر الإسلام . تحت تأثير هذه الروح التى تقمصتهم. وسيطرت عليهم لأن دينهم وقرآنهم يفيض بها فتحوا صدورهم للبحث والمعرفة .

وأرهفوا إحساسهم وتفكيرهم بكل ما قابلهم من علم وحكمة . فترجموا فى صدر الإسلام علوم الفلسفة ، والأدب ، والطب ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك والموسيقى ، وغيرها من اللغات اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والتركية .

وأظهرت القرائح العربية قدرة عجيبة على تناول الحقائق وهضمها والإضافة إليها والتعديل فيها . ولعب العرب والمسلمون دوراً كبيراً فى حفظ تراث الإنسانية وخدمة الحقائق العلمية .

حتى تسنى لأوروبا أن تقتبس من هذا العمل الإسلامى عن طريق الأندلس والحروب العلمية والحضارية لنعود بعد قليل إلى الشرق والغرب والمسلمين لتدل عليهم بهذه النهضة وهى منهم مأخوذة . وتتأسف عليهم وقد كانت لهم تلميذة » .

---

(١) مالك بن بنى .

قال العلامة « سيو » فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون منفردين فى العلم ، والفلسفة ، والفنون ، والصنائع، وقد نشروها أينما مشت أقدامهم ونقلت عنهم » .

وقال العلامة « درابر » فى كتابة « المنازعة بين العلم والدين » : « كان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الإسكندرية بعد موت محمد ﷺ ، بست سنوات ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى كانوا مستأنسين بجميع الكتب العلمية اليونانية » .

وقال الدكتور « بروكلمان » فى مقال بعنوان « مآثر العرب فى العلوم المدنية »: « بفضل الإسلام تفوقت الأمة العربية على جميع الأمم ، وكتب لها بلوغ أقصى الغايات والتوسع وإحتمال التبعات بما لا يوجد له نظير فى الأرض » .

وقال « غوستاف لوبون » فى« حضارة العرب » : « إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل كله فى الاستعاضة عن ولاية الأستاذية بالتجربة والملاحظة اللتين هما أساس الطرق العلمية الحديثة لا إلى الفيلسوف بيكون الذى قال ذلك خطأ » .

وقال د . طه حسين : فى محاضرة باليونسكو :

« لسنا ندرى ماذا سيؤول إليه أمر أروبا ، والحضارة الأوروبية لو لم تكن الحضارة العربية قد فعلت فعلها ؟ » .

وقال المفكر الفرنسى « موريس بوكاى » فى مؤتمر الإعجاز العلمى فى القرآن إسلام أباد فى أكتوبر ١٩٧٨ .

« إنه لم يوجد قبل القرآن الكريم كتاب مقدس يحث الإنسان على طلب العلم والبحث فى ملكوت السموات والأرض لاكتساب المعرفة ».

كما كان رسول اللّه ﷺ أول من أدرك أهمية ترغيب الناس فى تحصيل العلم ولقد أدى اقتناع المسلمين الأوائل بأهمية العلم إلى تذليلهم لأية عقبات تعترض سبيل البحث العلمى .

لقد كانت العقلية المسلمة أكثر نفتحاً ووعياً من العقلية الغربية فى العصور الوسطى. فلم تكن فى العالم الإسلامى أية تعارضات أو خصومات بين الدين والعلم.

بينما كانت الكنيسة في أوروبا تقف حجر عثرة أمام البحث العلمي فعقدت المحاكمات لغاليلو وآخرين من العلماء . وحكمت عليهم أحكاماً جائرة . وصل بعضها إلى الحرق حتى الموت .

واجب المسلمين اليوم :

أن يعودوا إلى القرآن الكريم الذى اتخذوه مهجوراً .. ليحصلوا بهذه العودة المباركة عزهم ومجدهم .. فى زمان لا يعز فيه إلا العلماء العاملون .. العلماء بالشريعة .. وبالطبيعة .. العاملون طبق منهج الله تعالى .. يتعاون المتخصصون فى كل فرع من فروع المعرفة على إبراز الحقائق المستكنة فى آى القرآن الكريم .. والتى يسفر عنها البحث الحر اليوم على أيدى علماء لا يدينون بالإسلام .. ولعمرى إنها لفرصة ذهبية ان يتقدم الدعاة المسلمون إلى العالم اليوم بما أسفرت عنه أبحاثهم.. لترجعها إلى أبيها الشرعى .. الإسلام .. وحينئذ فسوف يحققون للإسلام انتصاراً وذيوعاً .. لا تسيل فيه قطرة دم واحدة .. فإذا لم نظفر بعاطفة الحب تربطنا بمن حبسهم العناد فى سجون ضيقة من تعصبهم .. وإنها لإحدى الحسنيين .

إما انتشار للإسلام .. يفرح به المؤمنون . . وإما انتصار للحظة مباركة تدلف الحقيقة فيها إلى قلب معاند .. يقف معنا فى خندق واحد .

وإن غدا لناظره قريب .

القرآن

فى حسن المعاندين [١]

المعركة قديمة بين الأصيل والدخيل .. بين المبادىء والمنافع .. بين المجادلين عن الحق .. والمجادلين فيه .

ولا بأس من الخلاف .. ولا يأس من الإصلاح :

فقد أختلف الفقهاء .. فتعددت وجهات النظر تعددا .. لم يكن دليل انقسامهم.. ولكنه كان أمارة حيوية العقل .. ورحابة الدين الذى وسع آراء المختلفين .. المنصفين .

ولكن « الآخر » قد يلغى عقله .. حين يعرض الحق نفسه عليه .. فيعرض هو عنه .. بل يسخر منه .. وكلما زاده الحق إرشادا كلما ازداد عنادا إلى الحد الذى تصير مميزاتك عيوبا فى حسن المفترين من المعاندين على حد قول الشاعر :

---

(١) فى الصفحات التالية تفصيل لبعض ما ذكرناه مجملا قبل ذلك .

طهارة بعض الناس حرب عليهمو

وفضلهمو خصم لهم وغريم

وهو موقف يصدم المحق .. بل يخجله . حين يصير أمره على ما قيل :

إذا محاسنى اللاتى أدل بها

كانت عيوبى ..فقل لى : كيف أعتذر ؟!

وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا الموقف فى قوله تعالى فى سورة الروم ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٥٨ – ٦٠] .

منهج القرآن :

يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ كل الناس .. وتلك سمة من عالمية الإسلام المستوعبة للبشر جميعا .. والمغنية فى نفس الوقت عن « علمانية » ملونة متعصبة يراد بها سيطرة طبقة .. واستئثار منهج أرضى بأقدار البشر . ومازال الإسلام يستدعى كل الناس بمثل هذه النداءات : يابنى آدم .. يابنى إسرائيل .. يا أهل الكتاب .. يامعشر الجن والإنس .

[فى هذا القرآن]

والإشارة للقريب تعنى : أن هذا القرآن قريب منكم يسر اللّه تعالى حفظه والأخذ عنه لمن أراد ذلك مخلصا . ولم يكن القرآن أحاجى وألغازا .. وإنما هو ثروة متاح لكم أن تستثمروها لحسابكم ..

وفى هذا التقريب وهذا التيسير ما فيه من رحمة بكم وإشفاق عليكم ..

وإذا كانت هناك فلسفات تتعمد الإلغاز وتعقيد المعانى تغذية لمشاعرالانتقام .. فإن القرآن الكريم دون هذه الفلسفات جميعا لا يريد إلا الإصلاح . إعانة الإنسان على نفسه حتى تنتظم خطاه على الصراط المستقيم .

ولقد ضرب اللّه تعالى الأمثال .. بل من كل مثل :

ففيه من كل مثل :

فيه من كل نمط من أنماط الخطاب وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول .

وفيه من شتى اللمسات الموحية . العميقة التأثير .

وهو يخاطب كل قلب وكل عقل . فى كل بيئة وكل محيط .

وهو يخاطب النفس البشرية فى كل حالة من حالاتها .

وفى كل طور من أطورها] (١) .

لقد جاءهم القرآن بكل ما يغطى حاجات الإنسان :

[من كل معنى غريب . هو أوضح وأثبت من أعلام الجبال فى عبارة هى أرشق من سائر الأمثال]

وقد بالغ فى ذلك حتى [أزال الأعذار . وأتى بما فوق الكفاية من الإنذار] حتى صار ذلك البيان مثلا شرودا يضرب :

وإذا كان الطبع البشرى يبحث عن المتعة فهذا هو القرآن الكريم يقص عليه أحسن القصص ..

لقد صرف اللّه تعالى فيه من كل مثل .. لعلهم يتذكرون : قلب الأمور والدلائل على وجوهها . فاتضحت المعالم . على ما يقول الرازى :

[ذكر تعالى دلائل التوحيد . ونفى الشركاء والأضداد فى هذا القرآن مرارا . وأجاب عنها]

يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء : ٨٩]

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الكهف : ٥٤]

﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ [طه : ١١٣] .

﴿ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاحقاف : ٢٧] هذا ما فعله الخالق .. فماذا فعل المخلوق ؟

﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء : ٨٩] ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٤] .

---

(١) فى ظلال القرآن .

وإذن .. فلا عيب لا فى الرسالة .. ولا فى الرسول .. ولكن العيب هناك .. فى قلوب عليها أقفالها ..

وقد كان التوقع أن ينشئ فى قلوبهم ملكة التقوى . أو على الأقل يحدث لهم ذكرا يَحِدُّ من افترائهم على الحق ..

لكنهم لم يفعلوا.

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم : ٥٨] .

إن جئتهم بآية .. بدلالة واضحة تؤكد صدقك . لئن جئتهم بآية مما اقترحوه . ووعدوا الإيمان به مرئية كانت أو مسموعه .. ماذا يحدث ؟

أولاً : يهربون من مناقشة الآية المعلنة وما تدل عليه إلى اتهام كتيبه الدعوة كلها .. لا الذى جاءهم بالآية وحده .. فلم يقولوا : إن أنت] بل قالوا : إن أنتم .

ثانياً : يستخدمون أسلوب القصر افتياتا على أهل الحق الذين يزعمون أنهم خواء من كل معانى الخير .. وما عندهم شيء منها أبدا .. وكل ما هم عليه ضلال فى ضلال .

ثالثاً : وكما أنهم لم يكونوا موضوعيين حين عمموا الحكم . كذلك لم يكونوا موضوعين ولا جادين حين وجهوا السهام إلى رموز الأمة من العلماء فى قولهم :

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾

وكان الظن أن يوجهوها إلى الآية نفسها .. لكنها فكرة قديمة جديدة يتوارثها الماكرون الذين يحاولون بالاتهام هز صورة علماء الأمة حتى تهتز من خلالهم مبادئ الاسلام . من أجل ذلك [لا يكتفون بالتكذيب .. بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح] . وهم فى تطاولهم يكشفون خبيئتهم :

أ – إنهم فى اتهامهم لأهل العلم الأصيل غير مقتنعين بمابه يتهمون ..

ذلك بأنهم [كفروا] ويعنى ذلك : أنهم يسترون الحق .. الحق المستكن فعلا فى كيانهم .. لكنهم يتجاهلون نداءه فيهرفون بما لا يعرفون ..

ب – وهذا سر تعبيرهم بأسلوب القصر :

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾

فأنتم مبطلون .. دون سواكم .. تتحملون وحدكم مسئولية الضلال ..

وهكذا .. يعبرون عن قانون من قوانين النفس الإنسـانية التـى تخفـى الحـق فـى قرارها ..

ولأن هذا الحق يصرخ فيها من الداخل مكذبا إياهم .. تراهم يلجاون إلـى صيـغ التـأكيد إسكاتا لهذا النداء الذى يهزهم من داخلهم ..

وليتـم يناقشـون القضيـة المعروضـة بإنصـاف وموضوعيـة ولكنهـم يتجـاهلون الآية.. يتجـاهلون العلامـة اللائحـة الواضحـة .. وفـى رائعـة النهـار .. ثـم يسـددون سهامهم إلى الدعاة .. فى محاولة لهز شخصياتهم بهـذه التهمـة النكـراء .. إرادة هـز المبادىء التى يدعونهم إليها كما قلنا .

وهكذا يحاول المبطلون رمى المصلحين بدائهم ثم يهربون .. وهم بهذا المسـلك المعيب جهلاء لا يطلبون العلم .. مصرين على الباطل . إنه الجهل المركـب إذن .. الجهل المانع صاحبه .

أ - من إدراك الحق .

ب- ثم هو وازعه ليكذب الحق .

﴿ كذلك يطبع اللّه على قلوب الذين لا يعلمون ﴾

أجل : طبع اللّه تعالى على قلوبهم :

فلا يدخلها نور ..

ولا يخرج منها الضلال .

إنهـم لا يعلمـون ولـو حملـوا أرقـى الشـهادات .. [لأنهـم لا يطلبـون علـم مـا يجهلونه. رضا منهم بما لديهم من جهالات .. سموها دلالات .

وضلالات .. سموها هدايات وكمالات

وقد يسمون أنفسهم علماء .. أو تسميهم الدهماء كذلك .. لكنهم [يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا] إن عقلهم مولـع بـالبحث فـى القمامـة .. فهـو يصـدّر إلـى قلوبهـم صورا رديئة .. تردم نبع القلب الصافى ليصير من بعد أرضا جرداء ..

وقد يستهويهم الجمال يومـا .. ولكـن علـى طريقتهـم .. حيـن تسـتهويهم الجملـة المكشوفة والجسد العارى .. غافلين عن جمـال الحـق .. الـذى منعتهـم القسـوة مـن الإحساس به . بل يضيقون بكل ما يذكرهم به ومن يذكرهم بجلاله . وجماله .

وهكذا يأتيهم القرآن بكل جديد مفيد.. بكل أصيل من العلم . ونبيل من الأخلاق.

لكنهم كالحمر المستنفرة .. ولوا الأدبار وراء ثقافة ضحلة . عقيمة . يستجدونها من هنا وهناك . يستجدون ما يضرهم ولا ينفعهم باسم التجديد ورفض التقليد .

أجل .. يستجدون النخالة.. وفى البيت الدقيق .

ويستسقون العين الحمئة .. ومن تحتهم يجرى الماء الطهور !

آفة العلم :

وهكذا يستجمع المعاندون سلبيات العلم وهى :

النسيان . وتلك أفته .

والنكد .. وهو تكذيب الحق .

وإضاعته .. حين وضعوه فى غير موضعه .

موقف الداعية :

إن الحق تعالى يأمره بالصبر « فاصبر » فلتكن لك من الصبرُ جنة واقية .. إن الصبر جواد ألا يكبو . وسيف لا ينبو .. وهو العدة فى الشدة ..

فاصبر لأن وعد اللّه بنصرك حق .. وهو آت لا ريب فيه : افعل ما أمرك من الصبر .. ينجز لك ما وعدك من النصر .

﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾

[كن بعيدا منهم بالغلظة والجفاء . والصدع بمرّ الحق من غير محاباة مّا .

بعدا لا يطمعون معه أن يحتالوا فى خِفّتك فى ذلك بنوع احتيال .

من دروس الدعوة :

ومن دروس الدعوة فى الآية الكريمة ما ذكر الرازى :

[فإن طلبوا شيئا آخر - بعد الوفاء بالنصح - فذلك عناد .

ومن هان عليه تكذيب دليل .. لا يصعب عليه تكذيب الدلائل . بل لا يجوز للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ما ذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهرا لاغبار وعانده الخصم] .

ويعنى ذلك أن هناك شطارا فى المراء بريدون به شغل الجادين عن قضايا الحق .

وعلينا ألا نرخى لهم الحبل .. حتى لا يذهبوا بنا فى الأرض حيارى .. وبعد أن تقوم الحجة وتظهر المحجة .. فينبغى أن يتوقف الجدل . ما داموا لا يستسلمون. بل لا يريدون أن يستسلموا لمنطق الحق الذى ظهرت دلائله .

لأن ذلك الاسترسال فى الأدلة يحقق من السلبيات ما يلى :

١ - إنه يوهم أن دليله السابق فاسد .

٢ - أو أن المستدل المحق .. جاهل .

وفيما يتعلق بالمعاند فإن إتيانه بدليل بعدما وضح الدليل يوهم [أن الخصم ليس معاندا . فيكون اجتراؤه على العناد فى الدليل الثانى أكثر . لأنه يقول : العناد أفاد فى الأول . حيث التزم ذكر دليل آخر .] الرازى .

والداعية مطالب بالمضى فى طريقه .. متسلحا بالصبر الجميل .. محبطا سعى الماكرين الذين يريدون استفزازه .. وإحراجه لينزل إلى مستواهم .. حتى يكونوا فى الكفر سواء .. متأكدا أن المهرجين وإن كسبوا بالتهريج . جولات .. وحققوا نصرا جزئيا .. فهم مع هذا كله ضعاف بالنسبة لك ..

فأنت باليقين قوى ..

وهم فى غياب هذا اليقين ضعفاء ..

إن لوح الزجاج الهش .. لن يخدش السبيكة الذهبية لكن السبيكة هى التى تخدشه.. بل تدمره .. فإذا هو زاهق ..

ويبقى الأصيل دائما .. وإن نجح الدخيل فى التشوسن عليه يوما ..

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧].

فلا تتساهل معهم بفعل متراخ مجامل بحيث تطمعهم فيك . لا تقدم تنازلات تشجعهم على المضى فى طريق العناء .

يعينك على ذلك تصورك أنهم [لا يوقنون]

فهم ضعاف مهازيل. حين خلت قلوبهم من اليقين الذى يثبت الله به الذين آمنوا.

[إنهم شاكون : فأدنى شىء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف]

فلن يضروكم إلا أذى !

وهذا ما سوف يكشف عنه الزمان . وتأتى به مطايا الحدثان .

أما بعد :

فقد رروى : أن أحد الخوارج كان يصلى خلف الإمام على - رضى اللّه عنه - فى صلاة الفجر .

وفجأة قرأ الخارجى وهو فى الصلاة - قوله تعالى . يعرض بالإمام .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] فرد عليه الإمام - وهو فى صلاته - :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] .

لقد كان هذا الخارجى الهجام واحدا من المتخصصين فى الهجوم على رموز الأمة من علمائها المخلصين . هذا الحاقد الذى لم يراع حرمة الزمان ولا حرمة المكان ولاحرمة الزمان وأخطر ما فيه أنه وهو يعبر عما فى نفسه. يستغل أى القرآن فى هدم رجل القرآن !!

ثم خلف من بعدهم خلف اليوم يستخدمون كما قيل [الدين قبل الدينا ميت . والقرآن .. قبل مدفعية الميدان . والموالد قبل البوارج .]

وهكذا حاول نابليون مع أهل مصر الطيبين الودعاء [لقد فهم أن الدين فى الشرق أهم من المدفع وأن الشريعة تسبق الخطة .

وأن الفقيه أخطر من الخبر .

ولكنه لم يفهم :

أن الشعب المصرى بتكوينه الطبيعى . وميراثه الوطنى . والخلقى والنفسى : شعب يتسم بالوداعة والقناعة والارتباط بالجذور .

وهو مثل النيل :

لا يقبل الا نعطافات المفاجئة . ولا الانحرافات الحادة ولا المغامرات غير المتوقعة ..]

ومن تجاهل ذلك ..فهو مكسور .. ماديا .. منكسر نفسيا .. اما المصرى المؤمن .. المكافح الشريف .. فهو حتى لو هزم يوما .. فإن هزيمته تكون نصرا على ما يقول أبو تمام :

فتى : مات بين الضرب والطعن ميتة

تقوم مقام النصر .. إن فاته النصر

عود على بدء

يقول اللّه تعالى فى صدر سورة الروم :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٦ - ٧] .

تمهيد :

هاتان الآيتان فى مفتتح سورة الروم .. مع ما ختم اللّه تعالى به السورة ﴿ ولقد ضربنا للناس ... ﴾

كلها تتعانق لإثبات ما بينهما من حقائق الاسلام التى أنكرها الكافرون .

ونثبت هنا ما ذكره صاحب تفسير أضواء البيان . لنفاسته . ثم لصلته بما يدور الآن فى بعض بلاد الإسلام من فتنة بما وصل إليه غيرنا فى مجالات الاختراع . وما ترتب على ذلك من انبهار بمذاهبهم فى الدين والحياة .

قال (١) :

[اعلم أنه يجب على المسلم اليوم . أن يتدبر آية الروم هذه بعمق : ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التى ابتلى بها ضعاف العقول من المسلمين : شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا .. مع عجز المسلمين .. فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق .

وأن من عجز عنها متخلف .. وليس على الحق .

وهذا غلط فادح . وجهل فاحش .

وفى هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة . وتخفيف لشأنها أنزله اللّه تعالى فى كتابه . قبل وقوعها بأزمان متطاولة

فقد أوضح سبحانه أن [أكثر الناس لا يعلمون]

ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولا أوليا . فقد نفى عنهم سبحانه اسم العلم بمعناه الكامل الصحيح :

لأنهم لا يعلمون شيئا عن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم .

---

(١) بتصرف يسير .

ولا يعلمون شيئا عن الآخرة .

ومن غفل عن ذلك . فليس معدودا من جنس من يعلم

ثم لما نفى سبحانه عنهم العلم بمعناه الكامل الصحيح . أثبت لهم نوعا من العلم حقير بالنسبة إلى غيره .

وعاب ذلك النوع من العلم . بعيبين عظيمين :

أحدهما :

قلته . وضيق مجاله :

لأنه لا يجاوز ظاهرا من الحياة الدنيا .. والعلم المقصور على ظاهر من الدنيا فى غاية الحقارة . وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق الكون : علويه وسفليه.. والعلم بأوامره ونواهيه .

والثانى :

هو دناءة هدف ذلك العلم :

لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا . وهى سريعة الزوال

ويكفيك فى تحقير العلم الدنيوى أن أجود أوجه الإعراب فى قوله [يعلمون ظاهرا] أنه بدل من قوله [لا يعلمون] ويعنى ذلك .

أن علمهم .. كلا علم . لحقارته .

قال الزمخشرى فى الكشاف :

[وقوله : « يعلمون » بدلا من قوله : « لا يعلمون » .

وفى هذا الإبدال نكتة :

أنه أبدل منه . وجعله بحيث يقوم مقامه . ويسد مسده ليعلمك أنه : لا فرق بين عدم العلم : الذى هو الجهل .. وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا .

وقوله : « ظاهرا من الحياة الدنيا » يفيد : أن للدنيا ظاهرا وباطنا :

فظاهرها ما يعرفه الجهال : من التمتع بزينتها وزخارفها أما باطنها وحقيقتها : أنها مجاز إلى الآخرة ..

وتنكير الظاهر .. يفيد :

أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا .. واحدا .. من ظواهرها .

وضمير الفصل « هم » يفيد

أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها . ومحلها .. وأنها منهم تتبع . وإليهم ترجع] .

ويعنى ذلك أن يكشف المسلم عن ساق . ويشمر عن ذراع . لإجادة علوم الدنيا.. لتكون فى أيديهم كالمال الصالح فى جيب الرجل الصالح :

عونا للحق ونصرة لأهله .

* * * * *

بين الساطع واللامع

يقول الله تعالى :

﴿ الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : ١ - ٧]

تمهيد :

فى آخر سورة الروم ذكر الحق تعالى موقف الذين لم ينتفعوا بهدى القرآن . متهمين أهل الحق بدائهم حين قصروهم على الضلال بينما هم أهله الراسخون فيه .

وفى هذه الآيات الكريمة ينوه الحق تعالى بالقرآن الكريم الذى أعرضوا . وكيف أحسن المؤمنون استقباله ؟ فكان لهم هدى ورحمة وكانوا به محسنين ..

يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ إن آيات الكتاب هناك فى أفقها العالى.. لا يصل إليها من كان مقصوص الجناح ..

وإنما هو النسر الضارب بجناحيه فى جو السماء صاعدا إليها .. مقبلا عليها . وما النسر هنا إلا ذلك المؤمن الذى تخفف من ماديته .. من ذنوبه .. حتى تسنم الذرى العالية ..

والرحلة وإن كانت بعيدة محفوفة بالمخاطر .. إلا أن الوصول إلى القمة ميسور لأصحاب العزائم .. ذلك بأنها آيات .. علامات واضحات ..

فرقان يحسم الخلاف .. فإذا الراشدون سائرون على الدرب .. واصلون إلى ما أرادوا من كمال .

وبينما المنحرفون يضربون فى التية بلا دليل فإن أصحاب العزائم الماضية .. على هدى متمكنون منه .. لا ينحرفون عنه .

ثم إنها آيات الكتاب .. الذى لا كتاب سواه ..

الكتاب الحكيم :

ومن حكمته أن ينزل منجما . تثبيتا لقلب الرسول .. ثم . لأن العرب أمة أمية.. تعتمد على الحفظ .. وفى نزوله منجما إعانة لهم على ذلك ..

وأيضا : ليتمكن المناوئون من تدبرالآيات برفق .. بالإضافة إلى متابعة الحوادث وملاحقتها بما يناسبها من أحكام .

ومن حكمته :

ألفاظه البلغية . ومعانيه السامية .. لاينقض ما أبرم ...

كل أوامره .. غير قابلة للاختراق .. وفيه تفصيل كل شىء فى دائرة من هذا الإحكام .. أو هذه الحراسة المشددة .. فلا تطوله يد بالتحريف .

ثم هو مصدر الهداية .. مطلق هداية : متحررة من قيد الزمان وقيد المكان .. إنه نفس الهدى .. ونفس الرحمة التى يطمئن بها الخطو وتثبت الأقدام . ثم هو تفصيل كل شىء .. فهو يغنيها عن سواه .وهو كذلك للمحسنين الذين استقبلوه بوعى كامل.. أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى فحفظوه ثم حافظوا على مبادئه فكانت لهم شرعة ومنهاجا :

آقاموا الصلاة .. فحسنت صلتهم بالخالق .

وآتوا الزكاة .. فتمت عبوديتهم بالشفقة على المخلوق ثم بقيت الآخرة فى وعيهم حارسا مقيما : يراقب .. ويعاتب .. فإذا عملوا .. جاء عملهم صالحا..

وإذا نطقوا .. نطقوا ذكرا .. ولم ينطقوا هجرا . وإذا كتبوا كانت أناملهم كدود القز : يجعل من ورق التوت حريراً !

لقد اختلط القرآن بعظامهم ودمائهم .. فتكلموا به .. بل وعاشوا بقيمه .. إلى الحد جعلوه حكما حتى على الدقيق من حياتهم : فلم يكونوا يقولون : زرعنا . ولكن يقولون : حرثنا .. تماما كما علمهم القرآن : ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة : ٦٤] وكانوا يدعون ربهم متأثرين بالقرآن .. فكان من دعائهم : الحمد لله سقانا الماء برحمته عذبا فراتا .. ولم يجعله بذنوبنا ملحا أجاجا .

الفائزون بالجائزة :

ومهما ادعى المدعون .. ومهما اغتر المزيفون بما يملكون من ألوان التهريج فإن النتيجة أخيرا لصالح الجادين .. دون سواهم من هؤلاء الهازلين كما يفيد أسلوب القصر فى الآية الكريمة .

﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وضمير الفصل هنا يحسم القضية مؤكدا للمؤمنين ألا ييأسوا.. فالعاقبه للتقوى..

الساطع .. واللامع :

ومع سطوع الحق ..إلا أن هناك من السطحيين من يؤثر « اللامع » الخاطف للأبصار .. وإن لم يكن له مضمون :

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾

وإذا عملت أن .. كلمة « الناس » من النوس وهو : التذبذب والاضطراب .. انكشفت لك طبيعة هؤلاء الذين يشغبون على الحق :

إنهم خفاف الأحلام .. متقلبون . لا وزن لهم .. وهم يحتمون وراء البريق الخداع .. وراء كل لامع .. وراء وهج الزيف ..فليس لهم من الثباب ما يتحملون به مسئولية « الساطع » الذى يشع بريقه من ذاته .. لأنه الذهب الخالص ..

من أجل ذلك نراهم فى ضوء الآيات الكريمة يحاولون أن تكون الحياة من حولهم صورة لما فى قلوبهم :

ومن ثم يبذلون الجهود لهدم ما يبنى المؤمنون .. وتخريب ما يعمرون :

« ليضلوا الناس بغير علم »

ينحازون للغوغاء . ويستدبرون العقلاء .. يحاولون خطف الأبصار بهذا الزيف .. وهذا البريق ..

ومن هؤلاء : النضر بن الحارث :

لقد ذهب إلى بلاد فارس .. ثم عاد منها بمجموعة من الأساطير زاعما أنه سوف يغالب ما جاء به الرسول من الحق .. ثم فى النهاية يغلبه !

ولأنه غير مقتنع شخصيا بجدوى محاولته .. فقد قرر استصحاب بعض المغنيات .. ثم سلطهن على الناس ليقلن لهم : هذا خير أم ما جاء به محمد .

تفاهة موقف النضر :

لقد تنكر النضر لعروبته حين تجاهل ثقافتها الأصيلة وقيمتها النبيلة .. ثم راح يستورد الغريب من صور الإباحية .. وقد بدت تفاهته فيما يلى :

١ – لقد عدل عن الحكمة إلى غيرها .. واستدبار الحكمة ابتداء عمل غير صالح .

٢ – ثم هو يعدل عنها .. لا إلى مفيد من القول أو راشد من العمل . ولكن إلى اللهو .

٣ – وعلى اللهو مزيد من السخرية من الحق .

٤ – ولاحظ أنه يشترى هذا اللهو بالمال بينما الحق يعرض عليه نفسه .. وبالمجان !

يريد بذلك كله : مصادمة حقائق القرآن

التاريخ يعيد نفسه :

ومن العجيب أن ينتهج هذا النهج أناس لا تسوقهم دوافع نبيلة . ولا يستشعرون غايات شريفة ..

إنهم كالنضر بن الحارث تماما : يحتطبون فى حبله .. فيتنكرون لآداب الأمة وتراثها .. بل ويبددون ثرواتها فيما يضر فجمعوا بين الخستين :

إنهم يشترون : – كما قال المفسرون – :

[ما يلهى من الأشياء المتجدده التى تستلذ . فيقطع بها الزمان : من الغناء والمضحكات . وكل شىء لا اعتبار فيه .فيوصل النفس بما أوصلها إليه من اللذة إلى مجرد الطبع البهيمى فيدعوها إلى العبث : من اللعب : كالرقص وغيره . مجتهدا فى ذلك . معملا الحيل فى تحصيله باشتراء سببه .

معرضا عن اقتناص العلوم . وتهذيب النفس بإبعادها عن الهموم والغموم .

فينزل إلى أسفل سافلين . كما علا الذى قبله بالحكمة إلى أعلى عليين] (١)

الإسلام والجمال :

ولا يعنى ذلك أن الإسلام يحرم الاستمتاع بالجمال .. بل إنه ليحرض المؤمنين على تذوق ما فى الكون من جمال هو فى ذاته دليل وحدانية الله تعالى وقدرته . فى مثل قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٨] .

إنه يدعوك إلى تلمس الجمال فى الغصن الرطيب – :

فى الورق الأخضر .. والثمر .. والزهر .. والظل .. والمنظر الحسن .. والجو المنعش إنه الجمال المحكوم بقيم الكمال ..

---

(١) نظم الدور .

لكن العابثين كانوا على ما يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ [لقمان: ٧].

إنه يرفض الجمال فى الزهرة اليانعة .. أو فى الماء الجارى .. ثم يطلبه هناك فى الجسد العارى !!

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : ٧] .

ذلك بأنه تنكر لصوت فطرته التى تؤكد له :

أن من يقبل على أسباب الموت .. وباختياره فهو مجنون وكذلك من يؤثر الثقافة الضحلة على الحق المبين فإنه أدخل فى باب الجنون .

وكلاهما متنكر لصوت الفطرة .. ومنطق الواقع معا !

وهكذا يصبح الخطأ خطيئة .. إذا جاءك الحق يطرق عليك الباب فإذا أنت متجهم له .. بل إنك لتهاجمه .. .. غرورا وكبرا لا مسوغ لهما ..

فى الوقت الذى سبق فيه المؤمنون إلى منابع الخير فشربوا عذابا فراتا ..

هؤلاء الذين مرغوا الجباه على الأعتاب .. فرارا من الإعجاب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [لقمان : ٨ ، ٩] .

أما بعد :

فإن الاستعمار اليوم لم يعد هو الاستعمار

لم يعد هو : الجرىء الذى يجرد الأساطيل ويجيش الجيوش وإنما أصبح الأن الأستعمار الخسيس اللئيم يغسل يده ويستعيذ من الوسواس الخناس ويستعمل أيدى الآخرين فى أغراضه .. ولا يقتل ولكن يستأجر اللصوص يسرقون لحسابه بالأجر .

الاستعمار الجديد تقوم الآن به شركات تصدير واستيردات ومراكز تدريب وتجنيد للعملاء ورؤساء عصابات لهم أرصدة بملايين الدولارات فى بنوك أمريكا ويعيشون منعمين مترفين فى شقق فاخرة فى جنيف ، ولندن غارقين فى بحار الشمبانيا .

وهذا يعنى أن استعمار اليوم لا يتعجل أمره .. وأن أسلوبه المفضل أصبح أسلوب النفس الطويل ..

إنه الآن لا يتحرك بجيوشه ليحتل مدنا أو يحاصر قلاعا محصنة كما كان يصنع الصليبيون فى الماضى البعيد وإنما هو يتسلل الآن إلى جذورنا ليقتلعها ويسمم الآبار ويقتل البذور ويلوث الينابيع وينشر الجراثيم ويبث الأفكار الأشد قتلا من الجراثيم.

والفيلم السينمائى .. والخبر الكاذب .. والتيلفزيون الترفيهى .. والفكر المادى الملحد .. والعلمانية المنحلة .. ونشر العادات الاستهلاكية .. والرفاهية السطحية . والعادات المظهرية .. والمسلسلات التى تقتل الوقت .. والإعلام المفترس الذى ينهمر علينا من الأقمار الصناعية عبر الفضاء ليمغنط العقول الفارغة . وليفرغها من محتوياتها أكثر فأكثر ..

كل هذا هو استعمار ذكى جديد فى ثوب باهر من الالكترونيات يأخذ بالألباب وينسيك تماما أنه استعمار .. وأنه عدوان عليك.. وينسيك نفسك وينسيك مصالحك.. وينسيك أولادك .

والعدوان على العقل يجرى الآن على عدة مستويات وعلى عدة أصعدة . على صعيد الإعلام التيلفزيونى .. وعلى صعيد الجريدة المحلية .. وعلى صعيد الكتاب (فى الجامعة الأمريكية كان هناك كتاب مقرر على الطلبة يشتم النبى عليه الصلاة والسلام ويسخر من الإسلام لمؤلف شيوعى يهودى هو ما كسيم رودنسون) وعلى صعيد الفيلم .. وعلى صعيد الأغنية .. وعلى صعيد الاقتصاد نجد ما هو أكثر (فيعتدى على جيبك من خلال التضخم والغلاء والبطالة ويعتدى على عقلك من خلال أفلام خرافية بلا معنى) وكل هذه الخيوط يمسك بأطرافها استعمار اليوم .. وحيتان الصناعة والاقتصاد .. أمريكا ، وانجلترا ، وأوربا ، وإسرائيل ، وهم رواد هذا العدوان .

وأنت وأنا وكلنا .. أردنا أم لم نرد .. فى حرب مستمرة مع كل هذا .. فهكذا أراد بنا النظام العالمى الجديد .. الذى تمسك بأطرافه أمريكا .. وبين أنامل أمريكا تختفى أحبار الهيكل بأحلامهم المجنونة .. لنعيش فى حرب لا تنتهى .

وكنت أظنها حربا قصيرة المدى تنتهى فى السنوات الخمس القادمة .. ولكنى أراها اليوم .. أطول مما ظننت .. وربما أكثر .. إلا إذا تداركنا الله بلطفه .

إنه الامتحان الطويل الذى به تكون نهايته الدنيا نفسها .

* * * * *

[الذين يخسرون أنفسهم]

يقول الله تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية : ٦ : ١١].

تمهيد :

يقول ابن تيمية فى « دقائق التفسير » ما ملخصه :

[انقسم الناس فى سماع ما جاء به ﷺ

أربعة أصناف :

١ – صنف معرض ممتنع عن سماعه .

٢ – وصنف سمع الصوت . ولم يفقه المعنى .

٣ – وصنف فقهه . ولكن لم يقبله .

٤ – والرابع : الذى سمعه سماع فقه وقبول .

فالأول : كالذين قال فيهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَـذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] .

والصنف الثانى :

من سمع الصوت . لكن لم يفقه المعنى وهو المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [البقره : ١٧١].

والصنف الثالث :

من سمع الكلام وفقهه . لكن لم يقبله . ولم يطع أمره .. كاليهود الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائده : ٤١] .

والصنف الربع :

الذين سمعوا سماع فقه وقبول . فهذا هو السماع المأمور به فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائده : ٨٣] .

نماذج الرافضين :

ومن النماذج المعرضة الممتنعة عن سماع ما جاء به الرسول ﷺ وسلم . ما بينته آيات سورة الجاثية :

إن الآيات الكريمة لا تتحدث « عنه » .. وإنما تتحدث « إليه » فهو حاضر .. مدعو إلى قضية هو طرف فيها .. وليس هو بالغائب عن الساحة .. وإنما هو مخاطب .. مأمور أن يحدد موقفه :

﴿ تلك آيات اللّه نتلوها عليك بالحق ﴾ .

إنها من العلو والشرف .. في سماواتها العلى .. لكنها متاحة لك الآن .. تطرق عليك الباب .. كهذه الشمس الساطعة فى كبد السماء :

إنها عاليه .. لكن أشعتها معك بمنحك الدفء والضياء .

الأصاله والمعاصرة :

والقرآن الكريم : فيه نبأ ما قبلكم .. وذلك هو الماضى .. وخبر ما بعدكم .. وذلك هو المستقبل ..

وحكم ما بينكم .. وهذه هى المعاصرة ..

إنها إذن : الأصالة والمعاصرة .. يواكب بها القرآن أحداث الزمان :

من حكم به عدل ..

ومن قال به صدق ..

ومن عمل به أجر ..

فبأى مذهب بعده تؤمنون .. وتلك هى الأصالة التى تدعون

والمعاصرة التى تطلبون !

إنه المنهج القديم . . الجديد

إنى بنيت على القديم جديده

وأقمت من بنيانه ما هدموا

وإذن .. فهو الأولى بالاتباع .. لأنه الأساس .. ولأنه المقياس :

والبيت لا يبتنى إلا على عمد

ولاعماد إذا لم ترس أوتاد

أنانية البشر :

ولكن بعض من يدعون العلم .. يرفضون الهدى الذى يطرق عليهم الباب .

وإذا قيل لأحدهم : تأمل هذا القرآن .. وخذ من قيمه زادا يغنيك .. تأخذه العـزة بالإثم .. حتى إنه ليكره أن تقول عنه إنه قرأ لفلان أو علان ..

ذلك بأنه يرفض كل مـا يفهم منـه انـه تـابع لغيره .. ويصـر علـى أن يكـون : مبدعا .. مستقلا بأفكاره التى ينشأها إنشاء .. على غرار ما قالـه قـارون فيمـا حكـاه عنه القرآن الكريم :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾

الذين يؤثرون الانتحار :

وما ظنك برجل مثقف تدعوه إلـى مـا يكرمـه ويخلـد ذكـراه .. ولكنـه يرفـض العرض السخى .. مؤثرا أن يموت .. بيده منتحرا ! ليصير كهذا الذى قيل عنه :

[يرى غمرات الموت .. ثم يزورها]

والعقل يقول: من رأى بوادر الموت .. فحرى به أن يفر منها لا أن يقبل عليها.

ومن أقبل عليها .. فهذا مسلك مستغرب فى العادات وفى الطباع .

[حرية التعبير .. وسلامته]

وإذا كان من حق الباحث أن يكون حرا فى تعبيره .. فإن من حق العلم عليه أن يكون بنفس القوة سليما فى تعبيرة !

لقد جاءته الآيات « بالحق » مدعومة بالأدلة الشاهدة بصدقها .. ومن حـق العلـم عليه أن يرفع الراية البيضاء مستسلما ..

لكنه لم يفعل .. وكان كما وصفته الآيات :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَـأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية : ٧ ، ٨]

إن كلام الله تعالى هو : أجمل الكلام .. وأكمل الكلام ..

ولكن العيب فى المستمع وليس فى القرآن ..

وعيب المستمع أنه :

أفاك : مفتر على الله الكذب .

أثيم : مبالغ فى الإثم .. يغطى بالمبالغة فشله . يحاول تجاهل إحساسه بالذنب .. والذى يغالبه من داخله .

الباحث الحر :

لن يكون هذا المفترى باحثا حرا ..

وإذا أردت تصور مفهوم الحرية حقا . فتأمل موقف الشاعر عبيد بن الأبرص.

لقد سجنه النعمان بن المنذر .. ثم قرر أن يقتله .

لكنه أرسل إليه فى سجنه طالبا منه أن يمدحه .. ليعفو عنه .

فقال له عبيد :

اما وأنا أسير .. فلا

فأرسل إليه النعمان من يبلغه أن الملك يرده إلى أهله ثم يلتزم بعطائه .. فقال عبيد :

أما على شرط المديح .. فلا !!

وفضل الرجل الموت .. إيمانا بالحرية التى طالما تغنى بها ..

أما عن سلامة التعبير .. فإننا نطالع ما كان من ابن المقفع .. الذى غضب عليه المنصور . فأوعز إلى عامله على البصرة :

[سفيان بن معاوية] أن يقتله . ولقد اختار المنصور « سفيان » بالذات .. لما كان يعلمه من كراهته لابن المقفع ..

لكن .. لماذا كان يكره سفيانُ « ابن المقفع » ؟!

لأنه لم يكن فى التعبير عن رأيه ملتزما بالأدب .. وفضل أن يكون جارحا .. على أن يكون ناصحا :

فقد كان أنف سفيان كبيرا .. ملفتا للنظر .. وكان ابن المقفع كلما دخل عليه يقول :

السلام عليكما !! يريد سفيان وأنفه ..

وهكذا يسقط ابن المقفع فى الامتحان . وربما كان على الحق فى موقفه من والى البصرة .. لكن لم يكن حكيما فى تصرفه .. وهو صاحب الحيلة فى الخطاب

عندما أجرى أفكاره على ألسنة الطيور .. فرار من بأس الحكام .. لكن حكمته خانته هذه المرة ..

وكان عليه أن يفهم : أن الأديب .. يجب أن يكون مؤدبا !!

الهاربون من الحق :

يقول عزّ وجلّ :

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية : ٨] .

وتأمل من حجوده أنـه بمجـرد أن يسـمع الآيـات البينـات .. فإنـه بـدل أن يفكـر فيها.. يهرب منها ..

إذا سمعها تتلى عليه .. تتحدث إليه .. راغبة في هداه الذي يأتيه مجانـا .. فإنـه يُصرّ .. كالحمار يقف صارًا أذنيه .. صادرا في هروبه عن عقدة الكبر الذي يسـول له ازدراء الحق . وليس هذا فقط ..

فإنه ﴿ **إذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا** ﴾

إذا شم رائحة الإسلام في فكرة .. اتخذها هزوا ..

إنه يضيف إلى سوء النية سوء الأدب ..

وتأمل من افترائه واجترائه على الحق ..

أنه لا يتخذ الشيء المعروض عليه هزوا .. بل إنه يعمم الحكم فلا يقتصر علـى القدر المعروض وإنما يتخذ كل الآيات سخريا : ما علمه .. وما لم يعلمه !

فإذا تذكرت آخر سورة الروم وكيف يعمم الجاحد حكمه فلا يقتصر فـي اتهامـه على من يعرض عليه الآية وإنما يصم بالباطل كل عالم ﴿ **إن انتم إلا مبطلون** ﴾

إذا تذكرت ذلك .. انكشفت لك خبيئة الضـالين الذيـن لا يريـدون الا مـا يدغـدغ عواطفهم .. ويلبى شهواتهم .. أما كل ما فيه رائحة الاسلام فإنهم عنه معرضون .

يقول المفسرون :

لم يقل اتخذه [للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جمله الآيات التى أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيـات .. ولـم يقتصـر على الاستهزاء بما بلغه .]

وما يعنيه فقط هو البحث عن كل ما يظنه غميزة ومطعنا .. ليهرف بما لا يعرف .. غير منتفع بآيات .. إن لم ينتفع بها .. فليس هناك ما ينتفع به .

أولئك لهم عذاب مهين ولهم كذلك عذاب أليم .. ولهم عذاب عظيم جزاء من جنس عملهم .. حين قلبوا الأمور للإسلام إرادة إطفاء نوره . فكان أن قلبهم الله فى العذاب : الجسمى .. والنفسى .. فى الدنيا بما يحسون من هوان العاصى .. ثم فى الآخرة بما أشارت إليه الآية الكريمة :

﴿ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾

وتصور الآيات إلى أى حدهم : غافلون .. بل عمون : لا يبصرون ما وراءهم من عذاب يوشك أن يحتويهم ..

هذا العذاب الذى إذا جاء .. فلن يغنى عنهم :

ا – ما زعموه نجاحا ..

ب – ولامن ناصروهم على الباطل من روادهم الذين سولوا لهم العدوان .

الذين اتخذوهم سندا .. ليكونوا لهم عزا .. **﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً ﴾** [مريم : ٨٢] .

قيمة الحرية :

وقد يتحدث المشاغبون عن الحرية التى يطلبون .. ثم يجابون .. ثم يزعمون أن الإسلام لم يمكنهم من تمثلها .. فى محاولة لكبتهم .. وتدمير طاقات « الإبداع » فى كيانهم .

والإسلام برىء مما يزعمون ..

وما تزال قيمة الحرية زاهرة بين منظومة القيم الإسلامية وإذا كانوا يقولون :

[إن السماء تتسع لكل النجوم : فلا تحجب نجمة .. أخرى إذا كانوا يقولون ذلك.. فإن الإسلام كان فى هذا الباب سماء :

لقد وسع الإسلام كل الآراء .. وكل الأفكار . والتى دخلت ساحته منضبطه بما شرع من قواعد .. فلم يضق بها ..

وتأمل كيف اختلف الفقهاء:

فكان الرأى يلقحّ الرأى والشعاع ينضم إلى الشعاع

وقد يضيق قوم بقواعد الحوار وضوابطه .. راغبين أن يكونوا زهورا تنبت في الصحراء بلا منة من البستاني .. وبلا ضابط من علم الزراعة .

وقد يضيق آخرون بالصوت الجميل إذا كان المغني محكوما بضوابط الغناء ..

إذا كان هناك من هو كذلك .. فإن العقلاء لن يكونوا تحت رحمة هذا المزاج الفوضوي المدمر .. والذي يريد الأدب أو الفن متعة للجسد .. مهما تكن النتائج مدمرة .وليتأملوا من مشاهد الطبيعة تلك القناة عبر الحقول إنها وهي تحمل الماء عذابا فراتا .. محكومة بضفتين ..

لكن ذلك لم يمنع الماء من الجريان عبر الحقول .. ذات اليمن وذات الشمال .. لينبت الله تعالى به من كل زوج بهيج . ولو جرى الماء على ما يهوى .. بلا شواطئ حاجزه.. فسوف يصير بددا في خاديد الأرض.. ثم ليكون في النهاية مستنقعا !!

ألا إن الإنسان حر حقا .. طليق من كل قيد . إلا قيد الفطرة السليمة وقيد الشرع الحكيم وما سوى ذلك فهو الأدب .. يحتاج إلى أدب وفي غياب الفطرة .. والشرع يتحول المجتمع كما قيل بحق : إلى منزل متداع .

ومن حوله من يدعون ملكيته والغيرة عليه . ومع كل مصلح آلة ..

وبدل أن يتعاونوا .. يحاول كل منهم استبعاد الآخر وفاتت فرصة إعادة البناء..

والنتيجة ؟

النتيجة هي :

١ - صراعات يتسع بها الخرق على الراقع

٢ - الحرمان من مواهب كان من الممكن أن تعيد البناء .

٣ - وإنها لفرصة للقراصنة ينتهزونها ليحملوا من أنقاض البيت كل ما هو مفيد و.. بينما أصحاب البيت يتناحرون .

المنقذ من الضلال :

ولا منقذ من هذا البوار وهذا الدمار إلا الإسلام : ﴿ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية : ١١].

* * * * *

محاولة يائسة

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦]

تمهيد :

من تدبير اللّه تعالى لحفظ كتابه أن ينصره بالرجل الفاجر الذى يحاول الهجوم على الإسلام فإذا هو يدافع عنه .. شاهدا على نفسه بالتناقض .. وللإسلام بأنه من عند اللّه !

والآية الكريمة شاهد على صحة ما نقول :

إنهم « الذين كفروا » .. أى : ستروا .. فما هو الشىء الذى ستروه ؟

إنهم ستروا الحق .. على ما يقول النيسابورى :

[علموا أن القرآن كلام كامل : لفظا ومعنى .

وأن كل من سمعه ووقف على معانيه وأنصف .. حكم بأنه واجب القبول]

وما يقول الرازى :

[واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى . وفى اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة لفظه . وأحاط عقله بمعانيه وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول .. فدبروا تدبيرا فى منع الناس من استماعه فقال بعضهم لبعض [لا تسمعوا لهذا القرآن ..] غير مكتفين بالإعراض .. فنهوا غيرهم ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٦] يكذوبون على أنفسهم .

وهم بهذا المسلك المعيب يكذبون على أنفسهم التى فعلت ما ينكرون ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٤] .

ماذا فعل المبطلون ؟

تولى زعماء الكفر كبر هذه الحملة الظالمة بهذه الوسائل :

١ – كانوا يأمرون الناس عند قراءته بالصفير والصياح . وإنشاد الشعر يشوشون بذلك على القارىء . حتى يغلبوه على قراءته .فيقع فى السهو والغلط

٢ – ولما لم يجد ذلك .. طردوا الناس عنه طردا . شاهدين على أنفسهم بالعجز .

وقد فعلوا ذلك [ولم يعلموا أن من نَوَّر اللّه قلبه بالإيمان . وأيده بالفهم . وأمده بالبصيرة وكوشف بسماع السر من الغيب فهو الذى يسمع ويؤمن ..

والذى هو فى ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه . ولا يباشر السماع سره][1].

يفضحون أنفسهم

لقد قالوا ما حكاه عنهم القرآن : ﴿ **لعلكم تغلبون** ﴾

[ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب . ويظفر بمراده فى أن لا يميل إليه أحد . أو يسكت أو ينسى ما كان يقول] .

وهذا يدل على أنهم عارفون بأن من سمعه ولا هوى عنده مال إليه وأقبل بكليته عليه .

وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثيل لها : وذلك لأنهم تحدوا به فى أن يأتوا بشىء من مثله .. فلم يجدوا شيئا يترجون به الغلب إلا الصفير والتصفيق فى معارضة ما علا عن أعلى ذرى الكلام إلى حيث لا مطمع ولا مرام . فلا يفيد ما أتوابه معنى غيرانهم عاجزون عن المعارضة قاطعون بأنهم متى أتوا بشىء افتضحوا . وقطع كل من سمعه أنهم مغلوبون [2] .

[وهكذا يحكمون على أنفسهم بالجهل لأنهم فى الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو وبالباطل من العمل . واللّه تعالى ينصر محمدا بفضله] [3] .

وهكذا .. يُرينا اللّه تعالى فيهم عجائب قدرته التى أنطقتهم بالحق من حيث لا يحتسبون .

يقول صاحب الظلال :

[وهى مهاترة لا تليق . ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان.. ينتهى إلى المهاترة عند من يستكبر على الإيمان]

﴿ **فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا** ﴾

وإذا كان القليل الذى يتذوقونه شديدا .. فكيف يكون حالهم مع الكثير منه ؟ !

---

(١) نظم الدرر .

(٢) نظم الدرر

(٣) الرازى

المنتفعون بهذا القرآن :

إن للقرآن الكريم لغة لا يفهمها إلا المؤمنون .. لأن لهم نفوسا مصبوغة بالإيمان .. ومن ثم يحسنون فهم مراميه .. والالتزام بها .. إن من لم يتذوق طعم الإيمان .. فقد خسر نفسه .. وبالتالى لا تكون له أرض تنمو فيها بذور الخير ..

وربما كانت لهم عقول تعرف محمدا أكثر مما يعرفون أبناءهم لكنهم فقدوا الجوهر الذى به يكون الإنسان إنسانا ..

إن القرآن الكريم غيور لا يقبل الشركة ..

وكل ثقافة ضحلة مستوردة لا يمكن أن تمتد لها جذور .. ما دام فى الأرض مؤمن غيور .

إنه التبديد .. وليس التجديد !

إن أعداء أنفسهم لمخذولون [بقوة اللّه : إذ ليس فيهم رجل فصيح بليغ .. يكون لهم كالتعبير من الطبيعة عن المذهب . حتى يثبت مذهبهم فلا يُدفع .. ويقوم .. فلا يُنقض .

ولن يأتى لهم هذا الرجل :

فلو أنه اتفق لهم .. لكان أشد أعدائهم . ولأغلظ فيهم النكاية .

فما زال ينقضهم أبدا .. ولن يتموا به أبدا .

وذلك من عجيب تقدير اللّه فى العربية .. لمكان القرآن منها .

حتى لا يدخل فى طمع أحد . ولا تناله يد متناول .

فهو محفوظ بالقدر كما ترى .. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وإن طائفة من الذباب لو أصابت حاميا مدافعا من النسور .. فجاءت تطن بأجنحتها لتلوذ به . وتتضوى إليه .. ثم قصف النسر قصفة بجناحيه .. لأهلكها أو بعثرها وشردها .

وهو كان فى وهمها ملاذا . وكان عندها حمى . فذلك مثل القوم وما يحتاجون إليه من الرجل البليغ إذا التمسوه فأصابوه [١] .

---

(١) تحت راية القرآن – ٧

وقد يحقق الماكرون بعض الفوائد .. لكنهم يحققون ما يحققون : بالمكابرة واللجاجة ..

كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق .. وبالحيلة .. لا بالإقناع .. وعن غفلة .. لا عن بيّنة [1] .

وهم فى النهاية [غلطات إنسانية تخرجها الأقدار فى شكل علمى أو أدبى لتعارض بها صوابا كاد يهمله الناس . فيخشى الناس أن يتحيّف الخطأ صوابهم . أو يذهب به سكون بحبله . ويشدون عليه ويعود ذلك الصواب بعد ظهور الخطأ الذى يقابله . ووقوفه بإزائه موقف العدو من العدو . كأنما ظهر دليله . لا نقيضه . فيعرف الناس وجه الحاجه إليه . ومكان الغناء فيه. وضرورة المنفعة به . وكان وشيكا أن يضيع .

فكأنهم استنقذوه .

وكل ذلك مما يُكبِره . ويرفعه . ويبين عنه أحسن إبانة وأوضحها وكل ذلك مما يغرى به الحرص على سنة طبيعية قاهرة لا تدافع : وما زالت هذه من حكمة اللّه فيما يحوط به الدين الإسلامى وكتابه العربى الخالد :

فكلما وهن عصر من عصوره .. رماه اللّه بزنديق .. فإذا الناس أشد ما كانوا طيرة .. وأبلغ ما كانوا دفعا ومحاماه .

وإذا الدين أقوى ما كان فيهم وأثبت .

وإذا الزنديق كأنما سيق إليهم من جهنم ليقول لهم :

هلمّ إليها ! فيقول ميسم النار عليه :

إياكم وإياها !!

فالمجددون الملحدون: هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب .

وما أشبههم بالمواد السامة .

يداف قليلها فى الدواء لتكون قوته من قوتها .

فإذا ما زجته عادت فيه غيرما كانت وهى غى نفسها لا تزال كما هى .

---

(١) تحت راية القرآن – ٧

ثم يقول الرافعى فى هذه الفئة الماكرة :

[ليس فى جدالنا عائدة على أنفسهم :

إذ هم لا يضلون إلا بعلم وبينه

و [ما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعا كهؤلاء المجددين فى العربية:

فهم عند أنفسهم كالجمرة المتوقدة :

لا تشبعها حطب الدنيا .

ولكن غرفة من الماء تأكل الجمرة .]

أما بعد :

فما أكثر الذين يتغنون بالجمال .. بينما أنفسهم مسكونة بالقبح ..

وقد يجيدون الحديث عن القيم .. بينماهم متقلبون فى الوحل ..

وقد تكون لهم كتب وأبحاث علمية .. لكنهم فقراء فى حياتهم العملية .

* * * * *

القرآن

فى حياة الدكتور محمد الغمراوى

منذ ثلث قرن من الزمان .. كنت طالبا بالدراسات العليا قسم الدعوة ومن بين مادرسناه مادة « الآيات الإنسانية » والتى كان الدكتور الغمراوى يقوم بتدريسه لنا .

وكان من خطته : أن يقوم الطالب بتلخيص المحاضرة .. ثم يعرضها عليه في الأسبوع التالى .. ليقوم بتصحيحها تصحيحا يتيح للطالب أن يلمس ما كان منه .. وما ينبغى أن يكون عليه .

وكان من نتائج ذلك جلوس الطالب كأنما على رأسه الطير : ليفهم .. ويتابع .. ويستوعب ...

وكنت هذا الطالب الذى كان يجلس بين يدى الدكتور الغمراوى آخذًا عنه العلم..

وقبل ذلك أتعلم منه العمل ..

فقد كان محبا للنظام .. ويحترم الوقت .. إلى الحد الذى كدنا فيه أن نضبط ساعاتنا على حضوره ..

وكان مثال الجد فى أداء عمله الذى لم يكن يتخلف عنه تحت أى ظرف من الظروف .

إلى جانب إنسانيته التى لم تلغها جديته :

فقد كان بينه وبين الدكتور « عبد الرءوف مخلوف » حوار على صفحات مجلة « الأزهر » حول إعجاز القرآن الكريم ..

وكان دائما يوسطنى لأنقل تحياته إلى الدكتور مخلوف .. راجيا ألا يتأثر من حدته فى ردوده عليه .

وليس المجال هنا مجال الحديث عن الراحل الكريم . وإنما كان ذلك .

تمهيدا لما أريده وهو :

أننى رأيت أن الحق بهذا الكتاب بعض هذه الدروس التى كان يلقيها علينا الدكتور الغمراوى - والتى كنت أعود إلى بيتى لأكتبها من الذاكرة .. مستعينا

ببعض رءوس المسائل التى كنت أسرع بكتابتها .. ونظرى مشدود إليه .. فلعلها أن تكون تبسيطا لأسلوبه القوى الذى لا يحيط به إلا ضليع فى اللغة والأدب .. لنكون فى النهاية نوعا ما .. من التأليف .. الذى يتكفل فيه تلميذ مخلص بتسجيل ما ألقى عليه من قبل أستاذه : وفاء . وإبقاء على نهر العلم دافقا بالعطاء .. وليعلم طلاب العلم اليوم .. نفاسة ما كان يلقيه هؤلاء الرجال . الذين هم ثروة الأمة حقا .

آيات اللّه الإنسانية « أ »

الآيات الإنسانية هى الدين كله . يقول عزّ وجلّ :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] .

وهناك فرق بين الإنسانية فى مفهوم الإسلام . الذى يقدس الحدرية فى البحوث الكونية المتعلقة بالإنسان . وغير الإنسان .. وبين مفهومها لدى الغرب . حيث أدى موقف الكنيسة المتعنت من هذا التفكير الحر.. عزل الدين عن الحياة .

اللّه خالق السنن الكونية والإنسانية .

وجاءت شريعته تطبيقا لها . فكان رحيما بنا معشر البشر . حيث أعفانا من عواقب جهلنا سننه تعالى فى الناس . ومن نتيجة الخطأ فى التطبيق لو علمناها ووكل الأمر إلينا .

والضرر هو النتيجة الحتمية التى لا يشفع فيها حسن النية

إن تجاهل أحكام اللّه التى هى تطبيق محكم لسننه الكونية ومخالفتها فى بعض مظاهر حياتنا كالاختلاط مثلا .. وشرب الخمر .. أصابنا بمشكلات لن يحلها إلا الرجوع إلى هذه الأحكام التى هى طبق السنن الكونية الإلهية .

ويتحتم هذا الرجوع .. علمنا الحكمة أم لم نعلم .

وقد علمنا مثلا : ما أثبته الطب الحديث من حكمة الإسلام فى تحريمه شرب قليل يسكر كثيره .

ما يجب معرفته فى الإنسانيات

١ - الإيمان بوجود اللّه والدليل عليه : -

أ - وجود القرآن - ب - معانى القرآن - ج - أثر القرآن فى النفس البشرية- د - الكواكب ونظام سيرها .

٢ – توحيد اللّه ودليلة : –

أ – المشاهدة – ب– القياس على حالة الناس – ج – نظام الكون .

٣ – التشريع .

الموضوع :

أول واجب على الباحث فى الإنسانيات أن يتعرف على خالقنا موقنا بوجوده وواحدانيته إذ الكفر به تعالى حتى عن جهل أوعناد لا يثمر إلا الهلاك الأبدى ولو كان صاحبه على خلق حسن . وأدلة الوجود :

– وجود القرآن نفسه . ومن يشك فى القرآن يجابه بالسؤال الأتى :

كيف ترجع الضمائر فى القرآن كقوله تعالى :

﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها** ﴾ ؟ والآيات التى تخاطب الرسول عليه السلام دليل على أن القرآن ليس من عنده لكن من عند من يخاطبه .

وقد عرف اللّه نفسه لخلقه فى القرآن إذ يقول تعالى : ﴿ **اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَرَاتِ رِزْقاً لّكُمْ** ﴾ [إبراهيم : ٣٢] وعلى هذا فالمنطق الصارم يؤكد أن وجود القرآن دليل على وجود اللّه تعالى لما يأتى :

١ – القرآن لابد أن يكون من عند أحد ، وليس من عند الرسول .

٢ – من الذى يخاطب محمد ﷺ فى القرآن ؟ هذا هو الذى يرجع إليه ضمير المتكلم .

٣ – من الذى يرجع إليه ضمير المتكلم ؟ هو الذى خلق ما ذكر فى القرآن .

٤ – من هو ؟ هو اللّه تعالى كما يدل عليه الالتفات فى الآيات .

ب – **معانى القرآن الكريم** المنسوبة إليه تعالى لا يقدر عليها سواه فى القصص عما حاق بالأمم السابقة الكافرة باللّه من الإهلاك والتدمير والإبادة ولا يقدر على ذلك إلا اللّه تعالى . مثل ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح .. ﴾ إلى آخر سورة : ق .

ج – **أثر القرآن فى النفس البشرية المؤمنة به :**

إقرارات جماعات : الفرد كعمر الذى يدفن ابنته قاسيا ثم يحول القرآن القوى النفسية إلى حنان . وفى الأمة : العرب .. كان أثره بارزا وكذلك كل الإنسانية لو آمنت .

د - الكواكب ونظام سيرها :

ينبئ عن قوة لا نهاية لكمالها وحكمتها وقدرتها التى تدبر هذا الكون ولا يمكن أن يكون ذلك مصادفة فكل شيء لحكمة [الغرض يعبر به عن الإنسان - والحكم يعبر بها عن عمل الحق تعالى] .

إعجاز القرآن الكريم

آية التحدى فى الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ [الإسراء : ٨٨] هى فى الواقع تحد بما نزل حتى الآية وهو ٥٠ سورة لأن الإسراء [٥٠] وقد ترقى الله تعالى فى تحديه ..

فى سورة (هود) تحداهم أن يأتوا بعشر سور :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٣ - ١٤] .

وفى (يونس) تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : ٣٧ - ٣٩] .

ثم يترقى بالتحدى إلى طلب الإتيان بسورة واحدة فيها « بعض المثلية » كما تفيده « من » التبعيضية فى سورة (البقرة) :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ - ٢٤] .

وهذه آخر آيات التحدى . نزولا .. ويلاحظ تأكيدا لمعنى الترقى - أن التحدى هنا بطريق مباشر [فائتوا] وليس بواسطة [قل] كما فى آية يونس .

وقد كان التحدى بسورة واحدة لأنها القدر الذى يستطيع الإنسان به أن يحكم بالاعجاز ويظهر له ذلك .. لأن ما قل عن السورة ليس معجزا .

وعلى من تسول له نفسه أن يأتي – وهذا مستحيل فعلية أن يلتزم بما يأتي في المثلية .

١ – النظم

٢ – وحدة الموضوع

٣ – أن يكون حقا كالقرآن الكريم .

[يتبين فضل أسلوب على أسلوب بوحدة الموضوع .. والقرآن كله صدق فكيف يقارن بأسلوب غيره المبنى على الكذب بالإغراق فى المبالغة .. بل الذى يجعل الكذب أساس التفوق كقولهم [أعذب الشعر أكذبه] وتلك قضية خاطئة .

وكان ينبغى – متى ثبت إعجاز القرآن أسلوبا – أن يعتبر ذلك تشريعا وبيانا لمهمة الأدب :

١ – فى تربية الذوق الجمالى [انظروا إلى ثمره ..]

٢ – والسمو الأخلاقى .

لكننا أهملنا الانتفاع به فبدأ انحطاطنا كمسلمين عندما تغيرت وجهة الأدب – بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة – إلى ما صارت إليه فى عهد العباسين من الأدب الخليع وما يسمى اليوم بالأدب المكشوف . مع أنه لا حرية بلاقيد ومذهب الفن للفن خطأ . وقد قال الناقد العالمى « جون سكن » : لولم يعن الفن على رقى الأخلاق وتذوق الجمال فلا فن .. فالفن جمال .. فلا يعارض جمالا آخر هو : الأخلاق .. ليصبح القلب ميزانا عادلا .. وبالإضافة إلى هذا يجب أن يكون مهيمنا على الكتب السابقة.. أى : مصححا لخطئها ومصدقا لها فى البعض مثل :

أ – ذكرت التوراة أن عمر نوح عليه السلام ٩٥٠ سنة مع أن هذا عمر رسالته.

ب – ذكرت . التوراة فى قصة يوسف من بقاء قميصه فى يدها .. فكأنه كان مستعدا لمواقعتها .. [فانظر كيف ينتصرون لها فى محاكمة لتجريمه] لكن الحق ما ذكره القرآن الكريم .

قال عزّ وجلّ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَىَ الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وإذا كان اللّه عزّ وجلّ هو الذى تولى حفظ القرآن . وكان هذا القرآن حكما ومهيمنا فما درجة الكتب السابقة فى الحفظ ؟. لقد وكلها اللّه عزّ وجلّ للإنسان .. ولذلك حرفت :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

ومن هنا يظهر خطأ الذين أرجعوا القرآن فى قصص إلى أهل الكتاب لقد أخطأ خطأ فاحشا .. فالقرآن هو الحكم وهو المرجع .. كما يفهم ذلك من قوله تعالى [آية المائدة:٤٨].

ثم إن هؤلاء الناس لم يقولوا لنا رأيهم فى الآيات الصريحة المثبتة للتحريف والتبديل والحذف مثل قوله تعالى :

﴿ يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ [البقرة : ١٥٩] ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [النحل : ٦٤]

لكنه التقليد بلا دليل :

التقليد الذى دفع البعض إلى تلمس دليل لعظمة الرسول مِنْ فَم كُتّاب الغرب ! مع أن القرآن الثابت من عند اللّه هو وحده سجل هذه العظمة وليس هو « كارللى » كما يفهم البعض لأنه لم يمدح الرسول الكريم مدحا مطلقا :

يقول الغمراوى« كتب الكاتبون فى عظمة الرسول ما كتبوا .. فلم يبلغوا إلا بعض قدره ﷺ .. وإنما يصف كل من ذلك ما يطيق :

فمن المحدثين من قارنه ﷺ بأبطال التاريخ .. وخرج من المقارنه بأنه صلوات اللّه عليه بطل الأبطال فأخطأوا بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل .. لأنه أوهم بهذه المقارنه وهذا الحكم أن الرسول والبطل من قبيل واحد .. وليس كذلك .. ولا يمكن أن يكون كذلك .

فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول .. فرسالة الرسول صلوات اللّه عليه خرجت الأبطال وربت عظماء الرجال .. بل لم يعرف التاريخ عظمة فى أبطاله

تضارع أو تقارب عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم وأن فى التاريخ غير تاريخ الرسالة من سما بنفسه عن الدنيا وعن الهوى كماسما أصحاب الرسول ؟

بل أين إلا فى تاريخ الاسلام من دانت له الدنيا بالفعل فأعرض عنها وعن زخرفها غير معتزل فى جبل ولا مترهب فى صومعة . بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا إياهم بالحق والحزم من غير أن يرزأهم من دنياهم إلا بقدر القوت ؟

إن بطولة أبطال التاريخ تتضاءل إذا قيست ببطولة أصحاب الرسول .. فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول وبينهم وبين أصحابه من البعد ما بين أصحابه وبينه صلوات الله عليه ؟؟

وفى الناس من التمس فى العبقرية أوجه الثناء على الرسول وتقديره ولو جعله عبقرى العباقرة ما وفى بل ما زاد على أن جعله من نوع متجدد وإن يكن نوعا نادرا فى الناس .. فالذى يثنى بالعبقرية كالذى يثنى بالبطولة .. كل قد غفل عن أن العبقريين والأبطال يوجدون فى كل زمان .. ولا كذلك الأنبياء والرسل .. بله أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ثم فى الناس من جاوز ذلك فزعم أنه يثنى على الرسول حين ينسب إليه ما أجرى الله على يديه أوما أوحاه الله إليه كأن ذلك من عمله أوكأنما بلغ باجتهاده ويجعله بذلك أعظم العظماء .. كأنه ﷺ لا يكون أعظم العظماء إلا إذا كانت الرسالة من عنده أوكان وحيها من وحى قلبه وفكره كالذى يجرى على قلوب أهل الإصلاح والفكر وعلى عقولهم وليس هؤلاء وأولئك مهما أوتوا ببالغى أدنى مراتب الرسالة فى أنفسهم أو فى أثرها فى الناس . إن كل ثناء على الرسول بما ينقص من رسالته جهل بالرسول وانتقاص له . وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الإلهى الحقيقى المعروف فى الأديان ويدنيها من المعنى الإنسانى المجازى المعروف فى كلام بعض الناس هو تعطيل لها يمهد فى النهاية للتحلل من الدين ..

والمسألة ليست مسألة رغبة أو رأى .. ولكن مسألة حقيقة وواقع : فالرسالة بالمعنى الدينى ثابته وليس فى هذا شك وكل ما كان له ﷺ من عظمة فهو من رسالته وإليها .. ليس فى هذا شك أيضا .. فقد لبث فى الناس عمرا من قبلها لم يعرف بعظيم .ولما كانت رسالته ﷺ أعم الرسالات وأتمها كان هو صلوات الله عليه أعظم الرسل إذا أداها وأكمل البشر .. وهذا معنى يضيق عنه أن يقال : أعظم

العظماء .. لقد لبث ﷺ قبل الرسالة عمرا فى الناس فكانوا يثنون عليه كما يثنون على فاضل فيهم فلما أكرمه اللّه بالرسالة وأكرم اللّه الناس به صار خلقا آخر وإنسانا آخر وتطورت أمته به أمة أخرى فى الأمم .. وتحقق للإنسانية مثلها العملى الأعلى فيه وفى أمته فى عهده .

إن من يعرف معنى رسالة الرسل ويلم بطرف كاف من حقيقتها لا يرى فوقها لإنسان مرتقى ولا يخطر له أن وراءها فى مجال العظمة وراء ..

لكن الألفة حالت بين الناس فى هذا العصر الحديث وبين حقيقة تقديرها كما تحول الألفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة اللّه عليهم فى الشمس والقمر والماء والشجر والسمع والبصر وسائر أنعم اللّه عليهم به فى الفطرة ومظاهرها وأياتها :

إن هذه الفطرة مظهر قدرة اللّه سبحانه وعظمته . وفيض حكمته ورحمته فهى منه سبحانه على الناس نعمة .. وهى على وجوده سبحانه دليل ليس ورءها دليل .

فما فيها من سر يبهر إنما مرده إليه سبحانه .. وما فيها من عظمة تقهر إنما مستمدها منه سبحانه : فعظمة العظيم فى الوجود مرجعها إلى موجد الوجود :

هو أوجد وأفاض على كل موجود ما أفاض من عظمته بما أودع فيه من سر وبما فطره عليه من سنن جلت عن أن يغيرها أو يبدلها مخلوق فى الأرض أو فى السماء ..

فإذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالإنسان إلى فطرة الإنسان.. وتصورت أن فاطر الفطرة سبحانه قد اختص واحدا من الناس بوحى مباشر ورسالة إلى البشر وبين لهم بها سبحانه السنن التى فطر عليها أرواحهم وناط بها وبأتباعها عزتهم وصلاحهم فى الدنيا وسيادتهم فى الآخرة إذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لإنسان رسول على هذه الصورة .. أيقنت أن ليس يدانى مقامه أحد فى الناس وإن عظم .. وأدركت عظيم رحمة اللّه وعظيم نعمته على البشر فى ذلك الرسول :

لكن مجرد إحاطة الإنسان بسنن اللّه فى النفس والروح والاجتماع على يد رسول لا يكفى فقد يخطئ الناس الفهم والتطبيق فكان من حكمة اللّه ورحمته أن جعل رسالة الرسل تشمل شتّى التبليغ : تشمل التبليغ النظرى على لسان الرسول .. والتبليغ العملى .. بالحياة العملية للرسول .

فانظر إلى النبى أو الرسول – أى نبى من الأنبياء وأى رسول من الرسل – ما أثقل ما حمل وما أعظمه ! : كلفه الله بتبليغ دينة إلى الناس على الوجه الحق .. ثم كلفه كغيره بالعمل بالدين كما أنزل . لا يحيد عنه ولا يخطئ لأن خطأ منه ليس كخطإ من أحد :

فالخطأ العمد منه فى القول أو العمل كذب على اللّه والخطأ غير العمد إن وقع منه لا يقرعليه بل ينبهه اللّه إليه ويبلغ هو التنبيه إلى الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة وحتى لا يلتبس على الناس باطل بحق فى دين اللّه .

ومن هنا يمكن إتخاذ معايير عدة لتقدير عظمه الأبياء والرسل أحدها استنباطى يتعلق بما ينبغى أن يكون عليه النبى أو الرسول حتى يصلح لتلقى الوحى من اللّه سبحانه ..

والباقى معايير تكاد تكون كمية فى طبيعتها لآنها تتعلق بمقدار ما يبلغ الرسول من قول .. ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل .. ومقدار ما لاقى فى سبيل التبليغ من أذى .. ومقدار صبره على الأذى فى سبيل اللّه .. ومقدار تعدد نواحى الحياة التى جاء الدين ليشرع لها ويرقى بها .. ولينظمها طبق سنن اللّه فى الفطرة ثم هناك معيار إيجابى آخر هو ما أصاب الرسول من نجاح فى رسالته كما يبدو من آثارها فى الناس ..

فهذه معايير عدة صالحة لأن تكون حسابيه كما ترى ..

وتطبيق أى هذه المعايير يحتاج من غير شك إلى إحاطة وجهد وتوفيق .. لكننا لسنا فى حاجه إلى التطبيق لتفصيلى لنتبين أن محمدًا بن عبد اللّه صلوات اللّه عليه هو أعظم الرسل وأكمل البشر :

فرسالته أعم الرسالات وأرقاها لم تدع ناحية من نواحى الحياة الإنسانية للفرد وللمجتمع : إلا شملتها بتشريع .. ومع هذا فقد بلغها صلوات اللّه عليه فى نحو ثلاث وعشرين سنة أحسن تبليغ وأتمه وأبينه .بالقول وبالعمل : فالقرآن الكريم هو ليس للرسول للنبى منه حرف ولم يسقط منه حرفا والسنة هى ما هى تفسر القرآن كلام اللّه تفسير صدق بالقول والعمل .. وأثر الإسلام فى الناس واضح إن العجب العجاب أن ينهض إنسان أيا كان بكل ما فى الاسلام من تكاليف وشرائع : إن الأمة كلها – بعد الحقبة الأولى – لم تستطع النهوض بتكاليف الإسلام .. لكنه عليه السلام نهض

به كله ولم تجد عائشة وصفا له إلا قولها: « كان عمله ديمه » و « كان خلقه القرآن» بحيث لا يقدر عليها إلا رسول محصت فطرته واستخلصها اللّه من خيار من خيار طبق سنة فى الاستخلاف :

١ - سنن اللّه التى يتحقق بها الكمال الإنسانى قد تحققت فيه صلوات اللّه عليه وصارت حقيقة واقعة فى الكون مجتمعة فى فرد .. ومنتشرة فى أمة .. وصار ذلك الفرد هو المثل العملى الأعلى للإنسانية .. لا يمكن أن يبلغه الناس على الزمان إن اجتهدوا .. لكنهم يقتربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا .

آيات إنسانية «ب»

لاخطر على عقيدة مسلم يتصور نشأة الأحياء كما تصورها « دارون » :

سواء أفادت نظريته تطور كل نوع على حدة ، أم تطور الخلية الواحدة إلى ما لا يتناهى من الأنواع .

فهى على أى حال دليل على قدرة اللّه عزّ وجلّ وخاصة الاحتمال الثانى :

أما فيما يتعلق بآدم عليه السلام فإن الأمر يختلف :

فنحن نتجه فى بيان نشأته إلى القرآن الكريم مصدر الحق فنستمع إليه يقول : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] فآدم مخلوق من تراب بنص القرآن الكريم لامن ذكر وانثى كما تقتضيه نظرية التطور الدارويني

ولو تصورنا الإنسان الأول واحدا من نوعين تفرعا عن أصل واحد فى سلسلة المخلوقات .. وهذا الحيوان الأصل نشأ من ذكر وأنثى لنقضنا ما يقرره القرآن من أنه خلق من تراب .. وبطلت الحجه المحتج بها فى سورة آل عمران على أن خلق عيسى من تراب لا يقتضى تأليهه أو القول بأنه ابن اللّه وآدم خلق من تراب من غير أب ولا أم ولم يؤلهه إلاالنصارى بل عابوه بالخطيئة وورثوها أبناءه ليقولوا : إن عيسى خلصهم منها بالصلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف : ٢٤] .

فالأمر بالهبوط مضافا إليه الاستقرار فى الأرض يؤكد أنه خلق على أرض أخرى من الأرضين السبع التى منها أرضنا والتى يتعين بها السموات السبع لكل أرض سماؤها فلاصحة لماذهب إليه البعض من أن جنة آدم عليه السلام كانت فى عدن اليمن . أى : فى أرضنا هذه ولا يستقيم الأمر لهم لو استدلوا بقوله تعالى : (اهبطوا مصرا ..) لأن هذا أمر تعلق برغبتهم فى الزراعة فأمروا بالهبوط إلى أرض منخفضة وصالحة للزراعة .. وهى الغيطان ، بدليل أن « مصرا » مصروفة. فلا يصح لنا أن نقصد بها « مصر » الوطن .. لأننا حينئذ نسلم – من حيث لا نشعر – بحلم إسرائيل بدولة تمتد من النيل إلى الفرات : كما وأننا لو تصورنا خلق آدم عليه السلام من هذه الأرض لكنا أقرب إلى التسليم بدخوله ضمن السلسلة «الداروينية » ولا نستطيع حينئذ إثبات خروجه منها .

وقد أخطأ الشيخ طنطاوى جوهرى إذ جعل كل السيارات فى مجموعتنا أرضين، لأن معنى ذلك جواز الحياة فيها مع أن الحياة مستحيلة فوق سطح القمر إلا لمدة قصيرة ولأفراد معدودين بقدر ما معهم من هواء مجلوب ؟ والحق أنها سبع أرضين .. وقد خلق آدم عليه السلام فى واحدة منها صالحة للحياة ثم أهبط ليستقر على أرضنا هذه . والأرضون السبع أخبر اللّه بها فى آخر سورة « الطلاق » وهذه حقائق يفرض علينا المنطق الصارم فى تفسير القرآن أن نؤمن بها .

ولو فهمنا القرآن الكريم بهذا المنطق الصارم لما وجدنا عالما كالشيخ (الجوهرى) يقول بأرضية جنة آدم عليه السلام مع أنه لو تأمل فى خصائص هذه الجنة كما صورها القرآن لما سبق إلى ذهنه ذلك الفهم :

فاللّه عزّ وجلّ يقول :

﴿ فَقُلْنَا يَآدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٧ / ١١٩]

فالإنسان فيها مكفول الرزق بلا تعب عكس ما يكون عليه بعد خروجه منها مما يؤكد أنها جنة الجزاء التى وعدها اللّه المتقين .

أما ما قاله البعض من أن دار الجزاء هذه ليست دار تكليف فكيف يحكم على آدم فيها بالخطأ .. فمردود بأن الجنة لم تكن جزاء إلا بعد خروج آدم عليه السلام منها .

وإذا كان قد فات البعض أن يفسروا القرآن بالمنطق الصارم فلم يفهموا الحق فيه كهذه الآيات الكريمة من سورة « طه » فإننا نكرر ضرورة فهمه بهذا المنطق فرارا من الخطأ وصيانة لإيماننا ..

ونكرر أيضا لهؤلاء الذين قلدوا إذ قالوا فى الآيات السابقة إن الآية الأخيرة ختمت بقوله تعالى .. « .. فتشقى لضرورة السجع لأن الأصل أن يقال : « فتشقيا » .

فقد حكموا على القرآن – وحاشاه – أن فيه تكلفا .. وإذن فليكن التكلف تشريعا بعد ذلك حسب منطقهم ولا ضير مع هذا على كل متكلف !؟

ولو تأملوا الآية جيدا لفهموا أن قوله تعالى : ﴿ .. **فتشقى** ﴾ بضمير المفرد الذى هو آدم إشارة إلى مسئولية الرجل كراع مسئول عن حياة الأسرة ، فهو المتكفل بالسعى والكفاح من أجل سعادتها ..

لكنها النظرة السطحية إلى اللفظ تنسيهم هذه الحقيقة الكبيرة التى هى فى ذات الوقت مبدأ هام نحتاج إليه فى بناء حياة الأسرة لتستقر وتستمر ، الأمر الذى يؤكد ضرورة فهم القرآن الكريم بالمنطق الصارم حتى لا نضيع على أنفسنا خيرا كثيرا؟

« ٢٥ / ٤ / ٦٩ الغمراوى » .

إن الله سبحانه وتعالى خالق الكون .. والإنسان .. فهو وحده العليم بسننهما .. ومن ثم جاءت شريعته تعالى تطبيقا لهذه السنن فهى الحق الذى لا يحتمل الخطأ .

ولو ترك الأمر للإنسان الجاهل بهذه السنن .. لوقع فى الخطأ حتما .. وحينئذ فلن ينجو من نتيجه هذا الخطأ وإن توفرت عنده النية الحسنة ..

لأن هذه النتيجة تجىء لازمة .

من أجل ذلك أرسل اللّه عزّ وجلّ « رسلا مبشرين ومنذرين » لهداية هذا الإنسان الذى امتاز بأنه مختار فى أفعاله . فهو معرض للهلاك لو خالف السنن الإلهية . لأنه لا يعلم سنن اللّه . وحتى لو علمها لأخطأ فى تطبيقها .

[صور من المشكلات التى نتجت عن مخالفة الإنسان لسنن اللّه تعالى]

قضية « الاختلاط » : –

فسنة اللّه تعالى تقضى باحتمال الخطر « لو اجتمع رجل وامرأة » .. لكننا تجاهلنا هذه السنة فكان ما كان .

الخمر :-

يقرر الإسلام أن : ما أسكر كثيره فقليله حرام .. والقليل حرام لما يأتى

١ - يحس الشارب بلذة وقتية عند النقطة الأولى .. ثم تصبح هذه اللذة عادة فتطلب النفس المزيد .. وينتهى الأمر بالكثير أخيراً .

٢ - ثبت علميا أن هذا القليل يؤثر على المهارة الفنية للفرد كما ثبت بالتجربة على كاتب على الآلة الكاتبة .. فقد ظهر الفرق بين السرعة والجودة بعد الشرب وقبله .. ومعنى ذلك أنها تؤثر تلقائيا على النتاج .

ومع هذا فقد اعترض البعض قائلا :

لِمَ لم يقل تعالى : « حرمت عليكم الخمر » كما هو الشأن فى الميتة « حرمت عليكم الميتة » ؟؟

والجواب :-

١ - التعبير بـ « فاجتنبوا » أشد .. وذلك لأن التحريم نهى عن الشرب ولا يحرم الإمساك بالكأس مثلا .. وربما أدى إمساكها أو الجلوس حيث تشرب داعيا إلى العودة من جديد .. فجاءت « فاجتنبوه » لتبعد بالإنسان عن الخمر بكل ملابساتها فرارا من إغرائها .

٢ - مادة الاجتناب جاءت بالنسبة لجرائم كبيرة .

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

٣ - آية تحريم الخمر .. وإن لم تذكر فيها مادة التحريم لكنها اشتملت على عدة تحريمات تصل إلى ١٠ : -

* * * * *

آيات إنسانية « ج »

فطرة اللّه التى فطر الناس عليها .. لم يقل فطر الإنسان حتى لا يشك واحد فى أن المراد آدم مثلا .. على اعتبار أن « أل » فيه تصلح للعهد .. ومعنى فطرة : أن الدين بنى على سنن يعلمها اللّه تعالى « حقًّا » مائلاً عن كل المذاهب ومستقيما عليه وحده .

ربما لا يروق الحكم لعقولنا فنرفضه .. ولا ندرى أن معرفة العلة ليس سببا للعمل به .. فربما بنى الحكم على سنن لا نعلمها نحن . فما عذر من هاجم بعض الأحاديث النبوية لأنه لم يرق له كَأَبِى رِيَّة ؟!

لا تبديل لخلق اللّه : هذا دليل على عدم تبدل السنن الإنسانية .. وعدم التبديل وإن شمل الإنسانية والكونية إلا أن ورود الآيات الخاصة بذلك يتعلق بالإنسان أكثر لما يأتى :

أ – الإنسانية مجهولة بينما نعرف جميعا الكونية بالمشاهدة . ب : ليس للكونية أثر نفسى .. بل ربما لووقع إنسان من فوق سطح لمات شهيدا .. فيفوز بخلاف الإنسانية فلا بد فيها من عقاب .

الآيات هى : آية ﴿ لاَ تَبدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الأحزاب:٣٨] .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ.. ﴾ [فاطر : ٤٢ : ٤٣] .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ.. ﴾ [الإسراء : ٧٧] .

﴿ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ ﴾ [الأنفال : ٢٨] .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ ﴾ [الحجر : ١٣] .

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي ﴾ [غافر : ٨٥]

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ [الفتح : ٢٣]

﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىَ ﴾ [البقرة : ١٦] خسارة مضاعفة : هدى راح .. ومكانه ضلال].

يمكننا تلمس الآيات الإنسانية فى الأحكام التشريعية [استنتاجا كما أن بعض الإنسانيات منصوص عليهما : الخمر : حرام .. ما أسكر كثيره .

وقد اعترض فقيل : إن الخمر ليست حراما بدليل القرآن أنه لم يقل : حرمت كما فى شأن الميتة .. الرد :

١ – التعبير فاجتنبوه أشد . فالتحريم نهى عن الشرب .. والاجتناب يفيد البعد عنها وعن مجلسها فرارا من إغرائها ..

٢ – يستعمل الفعل « اجتنبت » فى المنكرات الشديدة : ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج :٣٠]

٣ – آية تحريم الخمر فيها عدة تحريمات :

رجس .. من عمل الشيطان . إنما يريد الشيطان .. فهل أنتم منتهون .. واحذروا.. فإن توليتم .

البيئة والوراثة وتأثيرهما .

فالآية الكريمة ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٠ – ٩٢] .

لكن الإنسان الجاهل بسنن الكون يقول : هذا فى الوقت الذى لا ينجو فيه من مخالفة سنن الطبيعة وهى سنن اللّه تعالى .

وقد أغراه بذلك أن نتيجة الخطأ فى المجال الإنسانى تظهر متأخرة وببطء إلى حد قد لا نحس بها إلا فجأة وأخيرا.

وإلا فعصيان سنن اللّه نتيجته الهلاك حتما .. تماما كهذه الشمس : فلو أنها عصت فخرجت عن خط سيرها تهلك . كذلك الإنسان .

فعلينا أن نطيع – طاعة مطلقة للّه العليم .. المطبق بلا خطأ .. حيث أنزل اللّه أحكامه على وفق سننه تعالى فى الإنسان .

ولنا أن نتلمس الحكمة بحيث لا نوقف الطاعة على معرفة الحكمة .. وإلا كان الإنسان يعبد رأيه .. كالسيد / أبو رية الذى جعل عقله مقياسا لرفض الحديث أو قبوله لأنه لم يهتد إلى الحكمة فيه .. ونسى أن الحكم ربما بنى على سنة لا يعلمها ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] « آباؤكم وأبناؤكم ».

* * * * *

مصدر الإنسانيات

الإنسانيات مصدرها القرآن الكريم وحده . ويشمل السنة المطهرة : -

والقرآن الكريم هو صوت الحق الذى قامت به الحياة فى هذا الكون .. وقد أراد الله أن يكون الاسلام هو القرآن .. والقرآن الذى نزل به جبريل على محمد ﷺ قديمة معانية .. ثابته حقائقه « وإنه لفى زبر الأولين » « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ ... ﴾ [الأنبياء : ٢٤] فهو مجلى عناية الله بعباده منذ خلقوا إلى قيام الساعة . والقرآن الكريم من عند الله ولم يفتره محمد عليه الصلاة والسلام لما يأتى :

١ - ضمير الخطاب فى مثل قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ ﴿إنا أوحينا إليك﴾ [وضمير الخطاب ينفى الافتراء] ويثبت الرسالة فى نفس الوقت .

٢ - من الذى يخاطبه ؟ إنه الذى يرجع إليه ضمير المتكلم .. وهو الله عزَّ وجلَّ.. كما يدل عليه الالتفات الذى لم يكن فقط للتشويق لكنه دليل على منزل القرآن سبحانه وتعالى وهذا الالتفات يندر وجوده فى الأدب العربى .

٣ - منزل القرآن هو القادر على : انزال الماء - إحياء الموتى - الموحى إلى نوح ومن بعده من كل ما لا يقدر عليه إلا الله وحده واجب الوجود ، ويعجز عنه محمد ﷺ .

٤ - القرآن الكريم معجز فى أسلوبه ومعانيه [معجز فى أسلوبه إشارة إلى جعل الأدب أسلوبا فى الدعوة إلى الله ومن أجل إعلاء كلمته سبحانه وتعالى .. ومعجز فى معانيه لا فى أسلوبه فقط حتى يمكن بإعجازه العلمى الرد على غير العرب .. وليس الأمر فقط كما يدعى البعض أن إعجاز معانيه الغيبية فقط .. بل كل ما يحتويه من معان] .

٥ - القرآن الكريم محفوظ من التغيير وفاء بوعد الله بحفظه فى آية الحجر ﴿إنا نحن نزلنا الذكر ..﴾ (١) .

---

(١) من وجوه حفظ القرآن :

كان الصحابة يحفظون القرآن الكريم قبل جمعه فى عهد أبى بكر .. فلماذا لم يكتبوه حينئذ ؟؟ لقد هيأ الله الوضع الذى تم عليه الجمع فى عهد أبى بكر ومن بعده حتى يقطع الطريق على شكوك الملحدين والمستشرقين فى مستقبل الأيام ..

وكذلك : ألهم الله عزّ وجلّ النبى عليه الصلاة والسلام أن يجعل شهادة خزيمة الذى جاء بآخر التوبة بشهادتين . ولذلك قبلت منه ساعة الجمع .. فلم يكن واحدا . بل كانت شهادته بشهادتين .

أ - حفظ النص .

ب - حفظ اللغة متنا [سخر الله الأصمعى] .

ج - حفظها تركيبا فى علوم البلاغة [سخر الله الجرجانى]

د - وفى علوم النحو والصرف .

[وقد أخطأ القائلون بإعجاز الصرفة حيث أحسنوا الظن بأنفسهم فجعلوا من أذواقهم معيارا للبلاغة .. لكنهم لم يحسنوا الظن بالله سبحانه وتعالى] .

٦ - « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .. مصدره حق .. وحتى لا يتوهم متوهم أن شيئا منه قد تغير فى الطريق .. فقد هبط حقا .. فحقيته متصله بدءا وانتهاء .

٧ - سبقت الأمة العربية غيرها من الأمم فى فن « القواميس » وذلك لأن القرآن الكريم قد حفظ اللغة .

٨ - القرآن الكريم .. لأنه بهذه المثابة كانت كل كلمة .. بل كل حرف منه لحكمة :

وصدق الرازى حين يقول ...

« ما من حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائده .. ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها .. ولا تصل إلى أكثرها ..

وما أوتى البشر من العلم إلا قليلاً .

[عن تفسير قصة لوط - العنكبوت] .

الآيات الإنسانية « د »

يراد بالآيات الإنسانية : الدين كله : من حيث كان هذا الدين رحمة من الله عزَّ وجلَّ بما شرع من احكام .. وما سن من آداب .

يفهم هذا من قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

تأملات فى الآية الكريمة :

« الدين فطرة » : أى : مبنى على سنن يعلمها الله سبحانه وتعالى .

« حنيفا : مائلا عن كل المذاهب - ومنها الفلسفة - ومستقيما على الحق وحده

« النـاس » لـم يقـل « الإنسـان » حتـى لايشـك واحـد فيظـن أن « أل » فيـه للعهـد والمراد آدم عليه السلام .. واختار سبحانه « الناس » لعمومه .

وحينما يذكر الدين .. والانسانية .. ينبغى أن نفرق بين معنى الدين هنا ومعنـاه فى استعمال الغرب :

فقد وقفت الكنيسة هناك حجر عثرة أمام الفكر الحر وفرضت آراء معينـة أرادت لها أن تسود .. ولما كشف علماء الفطرة مثل « جاليليو » عن زيف هذه الآراء نكلت بهـم الكنيسـة .. الأمر الذى دعا هؤلاء العلماء إلى الثورة على الكنيسة وعزل الدين عن توجيه الحياة ..

وقد ظن بعض الناس أن « الدين » الذى قيد الفكر الغربى .. هو كل ديـن .. أى أنهم حسبوا « أل » فيه للجنس فثاروا مطالبين بتنحية كل دين بما فى ذلك الإسلام .. بل الإسلام خاصة .. عن مراكز التوجيه . مع أن الإسلام يقدس الحرية .. ويرحـب بكل بحث نزيه حر .. لأنه يقود إلى الإيمان بالله تعالى أخيراً .

وفرق كبير بين الإسلام الذى يدعو إلى الحرية ولو لم ينتشر .. وبين غيره مـن المبادئ التى لا تعترف بهذه الحرية إلا بعد انتشارها فعلا .

وعدم استبحار هؤلاء الناس فى فهم الإسلام قادهم إلى مثل هذا الظن الخاطئ.. ومثل هذا الخطأ له نظير فى التاريخ :

فى عهد المـأمون ترجمت الكتب اليونانيـة .. ومنهـا الفلسـفة .. لكـن المـترجم عنون لأبحاثها بلفظ « الحكمة » فاغترف الناس بها .. لا سيما والرسـول ﷺ يقـول : « الحكمة ضالة المؤمن .. » ومن ثم انكبوا عليها وفتنوا بها إلى حد أن تجرأ العلمـاء فجعلوا أدلة الفلاسفة على وجود الله مثلا قطعية بينما أدلة القرآن الكريم «خطابية»؟!

دور الشيطان فى رفض الحق :

١ - الإنسان مختار .. هذا أمر يشعر به كل إنسان فى نفسـه وكلمـة « الإنسـان مجبور فى صورة مختارة كلمة شيطانية يريد بها الشـيطان أن يشـكل علـى الإنسـان حتى يضله .. كذلك القضاء القدر ربما كان مثار إشكال منه .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعـام : ٤٨ -

٤٩] فالآية الكريمة تكذب من يقول : إن الإنسان مجبر أو مجبور في صورة مختار. أو القضاء والقدر يجبر الإنسان على فعل شيء أو تركه . لأن هذا يكون ظلما .. والله سبحانه منزه عن الظلم : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما » وهذه أمور لا ينبغي أن تكون محل بحث بتاتا ولا موضع شبهة وإشكال عند من يؤمن بالقرآن .

٢ – نية الإنسان ملك له لم يجعل اللّه سبحانه لأحد سلطانا عليها .. وسوف يحاسب عليها :

« إنما الأعمال بالنيات »

مما قررناه يتضح دور الشيطان وهو الوسوسة ومحاولة صد الإنسان عن قبول الحق .إن الشيطان لا يجبرك على معصية لكنه يوسوس فخالف وسوسته .. أما أنه يحمله أو يجبره على فعل شيء أو تركه . فهذه : لا . فوجبت مخالفة الشيطان في وساوسة لتقوى روح الإنسان بهذه المخالفة .. ومن هنا تأتي الحكمة من خلق الشيطان حيث ترقى روح الإنسان وتقوى بعصيانه .. إن واجب الإنسان ألا يقع في المعصية .. فإن وقع .. فباب التوبة مفتوح . ولولا ذلك لهلك الإنسان وتلك رحمة الله .

وعلى الإنسان ألا يعتمد على ذلك : لأنه إذا تكرر منه الذنب والتوبة ثانية .. وهكذا فقد يتعود المعصية ولا يتوب .

وهذا مايشير إليه الحديث الشريف [لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين] فإذا وقع الإنسان في معصية .. أو خطأ لا معصية فيه فعليه ألا يقع فيها أو فيه ثانية وتلك صفة المؤمن .. فإذا أخطأ تنبه لسبب فلا يعود .

أقبل الحق عند ظهوره ولا توقف الطاعة على فهم الحكمة .

وكان على الشيطان أن يذعن للأمر بالسجود لأدم فور صدوره بلا تردد مادام كل شيء من عند الله لكن فسق عن أمر ربه وحكم العقل على من لا يحكم عليه عقل .. وخطأ الشيطان يتلخص في الآتي :

١ – كان عليه طاعة الأمر ولا يوقف ذلك على معرفة الحكمة .

٢ – أخطأ حين ظن أن النار خير من الطين .... فالنار مهلكة .. والطين أصل النبات .

٣ – لنفرض أن النار أفضل من الطين .. فهل المخلوق منها أفضل من المخلوق منه ؟ أبدا .. لأننا لا نحكم على الشىء بأصله .. بل نحكم على الشىء بذاته ..

وذلك لأن المركب الكمياوى غير عناصره إطلاقا .. وهذا يدل على جهله بمبادىء الكيمياء ..

مثال :

ملح الطعالم : فهو مركب من مادتين أساسيتين : كلور + صوديوم .

ومع ذلك لاغنى عنه لأنه عنصر هام ليس فقط للمذاق ولكن أيضا يخلق منه الحمض الضرورى للعصارة الهضمية حتى تقوم بوظيفتها ..

لكنه الغرور .. قاتل اللّه الغرور .

* * * * *

[ما يجب أن يلتزم به العلماء في أبحاثهم]

٢ – حول إعجاز القرآن

٣ – كيفية التخلص من وسوسة الشيطان فى العبادة

والواجب على العلماء عند صياغة نظرية أن يحدوها بدقة ويتجنبوا التعميم بلا ضرورة مثلا : قالوا : الذرة لا تنقسم .. ولم يحددوا .. أو ربما يكونون حددوا أولا ثم غفل بعد ذلك عن هذا التحديد وأطلقوا :

فمن الثابت أن الذرة لا تنقسم فى التفاعلات الكيماوية .. وكان من الواجب عند صياغة ما توصلوا إليه أن يقولوا : إن الذرة لا تنقسم فى التفاعلات الكيماوية .. لكن إطلاق الصياغة كما هو متعارف عليه الآن يؤدى إلى أخطاء كثيرة .

ولقد أعثرهم اللّه على عناصر تنقسم هى العناصر الشعاعة كالرديوم واليورونيوم ومعقدة التركيب ويخرج منها إشعاعات ، اكترونات كذلك.. من أخطاء الفكر اليونانى أن العناصر ٤ : التراب ، والماء ، والهواء ، والنار . لأن ما ذكروه ليس عناصر .. ولكونهم عجزوا عن تحليله قالوا ما قالوا فأثبت العلم الحديث خطأه ولهذا نجد القرآن الكريم يحدد الالتزام الذى يجب أن يلتزم به الباحث وهو : التثبت مما يقول فى قوله تعالى :

﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم .. الآية** ﴾ فقل : بما لك به علم .. ولا تتمسك بما ليس لك به علم . ولهذا يجب على طلاب المعرفة أن يتأسوا بالقرآن فلا يلتمسوا الحق إلا منه ومن الفطرة التى فطر اللّه سبحانه الكون عليها بالطريق العلمى الدقيق.. ولا ينبغى أن تفسر الآيات الكونية إلا بما ثبت يقينا .

ولذلك لا يؤخذ العلم من الجرائد والمجلات الأدبية . ومن الأخطاء ما طالعتنا به كاتبة :

أن الزهرة سنتها أطول من الأرض . وهذا غير صحيح . والسبب قرب الزهرة من الشمس فحركتها ما قاله المرحوم محمد وصفى : فى تفسيره لإخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى [إذ أنكر أن يكون الإنبات من النورة والنواة مثلاً لإخراج الحى من الميت ناسيا آية الأنعام ..

* * * * *

حول إعجاز القرآن

القرآن الكريم كله معجز .. وقد تحدى اللّه به العرب وتدرج معهم فى التحدى : تحداهم بالقرآن كله .. ثم بعشر سور .. ثم التحدى بسورة وما يماثل أقل سورة كسورة « الكوثر » وليس معنى هذا أن مادون السورة من القرآن غير معجز .. فالحق أن كل آية قرآنية فيها إعجاز ولهذا سماها اللّه آية .. وعلى سبيل المثال لا الحصر :

قوله تعالى : أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » فهذه استعارة : لا يوجد مثلها فى غير القرآن .. وفى القرآن استعارات لا يمكن مجاراتها : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين الحمد لله رب العالمين .

فهذه الآيات وأمثالها تشير إلى إعجاز الآية بل بعض من القرآن .. فثبت أن ما دون السورة معجز لكن لا يدرك إعجازه إلا الأقلون ولا يتضح إلزام الحجة إلا بمثل أقل سورة ولهذا نزلت آيات التحدى متدرجه إلى أن قال تعالى :

﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨] .

كيف يمكن القضاء على وسوسة الشيطان فى العبادة ؟

أقسم الشيطان ليوردن بنى آدم موارد التهلكة « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين » وهو لا يألو جهدا فى السيطرة على قلب الإنسان محاولا إبعاده عن طرق الرشاد ولما كانت الصلاة عبادة يلتقى الإنسان بربه يناجيه ويبثه شكواه .ويتجدد هذا اللقاء فى اليوم والليلة خمس مرات فإن الشيطان يبذل جهد فى صرف الإنسان عن صلاته والابتعاد به عن خشوع القلب واطمئنان الجوارح .. وذلك بالوسوسة وتشتت ذهن المصلى وإغراقه فى دوامة الأفكار التى لا تمت إلى الصلاة بصلة . وهذا يؤدى إلى إحباط عمل المؤمن وعدم انتفاعه بصلاته .. والرسول ﷺ يقول ما معناه:

« ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » وقوله تعالى : لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فحضور الذهن فى الصلاة كلها واجب بهذه الآية . وإبليس فى وسوسته يطبق النظرية التى يقول بها علماء النفس .وهى : تداعى المعانى.. وأنه لا يمكن التفكير فى شىء واحد وحصر الذهن فيه دون سواه .

ويختلف تأثير الوسوسة من شخص لآخر .. لأن تداعى المعانى يختلف من شخص لآخر والقضاء على وسوسة الشيطان فى الصلاة وعدم تداعى الأفكار المحبطة للصلاة يكون بتركيز الذهن فيما تحتوية الصلاة من قراءة ودعاء .. فتأمل معانيها لا يترك لوسوسته ثغرة . ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤاخذهم على أفكارهم وهواجسهم .. قال ﷺ ما معناه : إن اللّه غفر لأمتى ما حدثت به نفوسها ما لم تعمل أدنتكم وإن من مأثور الدعاء حديث الرسول ﷺ والذى كان يردده كل يوم اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه إنى أستغفرك من كل وعد وعدتك من نفسى ولم أوف به ..

وأستغفرك من كل عمل قصدت به وجهك فمخالطه غيرك ..

وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك ...

بمثل هذه المأثورات لا يكون للشيطان على المؤمنين سبيل .

* * * * *

موازنة بين الآيات الإنسانية والكونية : -

كثرت الآيات الإنسانية [٥٥٠٠ آيه] تقريبا ..

عدد الآيات الكونية [٧٠٠] تقريبا ....

ولا شك أن التكرار الذى يقف وراء كثرة الإنسانيات يبين أهمية موضوعها لما يأتى :

١ - كل المخلوقات تطيع طاعة تامة ما عدا الإنسان الجاحد .. ومن ثم فهو فى حاجة إلى مزيد تذكير :

« ألم تر أن اللّه يسجد له .. وكثير من الناس » وينبغى أن يفهم أن الكون يطيع اللّه شاعرا بذلك كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ كل فى فلك يسبحون ﴾ بضمير العاقل- الحمد لله رب العالمين « قالتا أتينا طائعين » وهذه أصرح فى إفادة تعقل الطاعة .

٢ - رؤية الكائنات الأرضية والسماوية كاف فى الدلالة على عظمة الخالق بدون تعليم .

٣ - وعلى أية صورة تخيلنا مظاهر الكون فهى دلالة على قدرة اللّه ولو كان هذا التصور خاطئا .. لأنه على أى حال مظهر لا يقدر عليه إلا اللّه تعالى [كما تصور اليونان - خطأ - القمر ثابتا فى كرة تدور حوله] .

٤ - المشاهد الكونية تكفى لإثباتها الملاحظة وهى خاضعة للتجربة بعكس الإنسان الذى لا يخضع للتجربة وقاية لحياته من الخطر .. ولذلك تكفل القرآن والسنة ببيان كل ما يتصل به طبق سنن اللّه فى الناس .. المقابلة لسننه سبحانه وتعالى فى الكون التى يبحث عنها علماء الفطرة .

٥ - يمكن استخدام « الميكروسكوب » للتأكد من مشاهد الطبيعة بمعنى إمكان التحكم فى الظروف بالتعديل كما حدث بالنسبة للعدسات .. فقد كان قطر أكبر عدسة إلى عهد قريب ١٠٠ بوصة ثم تطورت إلى ٢٠٠ بوصة .

٦ - وجود شيطان موسوس .. دائم الوسوسة يقتضى دوام التذكير لمقاومته وإذن .. فلماذا خلق إبليس ؟ : -

الإنسان : مختار وهو : جسم ، وعقل ، وروح : وكما تقوى عضلات الجسم بمقاومة جاذبية الأرض .. وكما يقوى العقل بحل مشكلات رياضية كذلك لا بد لقوة

الروح من مقاومة دائمة لشياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

وقد كثرت شياطين الإنس . ومن محاولاتهم إغراء الإنسان بلفت نظره إلى جمال المرأة .. مع أنهم لو أخلصوا لقضية الجمال للفتوه إلى جمال الزهرة مثلا !!

وقد قاوم النبى ﷺ إغواء هذا الشيطان ومن صور هذه المقاومة : أنه كان يثب عند سماع أذان الفجر ولا يتردد حتى لا ينتزها الشيطان فرصة .. أى أنه عليه الصلاة والسلام يقطع الطريق عليه بحيث لا يدخل معه فى عراك .. فلا يجد الشيطان إلى قلبه سبيلا .. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان .

وفى القرآن أحكام مجمله كالصلاة والزكاه .. ومفصله كالخمر والميراث ,.. والرسول عليه الصلاة والسلام يبين هذا المجمل ويطبق المفصل .

اما بالنسبة للكونيات فقد وكل اللّه تعالى أمر تفسيره وتفصيله [الفصل : والشمس تجرى

كل فى فلك يسبحون – المجمل : من كل شىء موزون (١) .– إنا كل شىء خلقناه بقدر وكله للناس لعدم أهميتها المباشرة فى الهداية بالنسبة للإنسانيات .. ولا شك أن الكونيات برغم هذا تؤدى دورها فى هداية الإنسان باعتبارها دليلا على وجود الخالق ووحدانيته : ﴿ **قل انظروا .....** ﴾ .

٧ – من خصائص الإنسان : العقل المستنبط (٢) . . لكن صحة النتيجة تتوقف على صحة هذا الاستنباط وسلامة المقدمات ..

---

(١) مثل هذه القضية الكونية – التى يفصلها علماء الفطرة مما يثبت إحاطة القرآن بها تشمل كل نبات– أى : كل علوم النبات الخاصة بالانبات أو التكوين – وكلمة « موزون » يفسرها علوم : الزراعة – النبات – الكيمياء الحيوية [أى : التى تجرى داخل الكائن الحى] – الكيمياء العامة [قوله تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين [وسبحان الذى خلق الأزواج كلها** ﴾ وهذه الآية الأخيرة تفسر المراد بالزوجية : الذكورة والأنوثة] .

(٢) ملاحظة : الإنسان ربما استغرقت عمره بلا وصول لنيتجة . ومن ثم كانت صحة القضايا منوطة بالقرآن والسنة والإنسان يتميز بخصائص تجعله يختلف عن الكونيات : فهو : عاقل [مستنبط] فى أحسن تقويم – مختار مريد فيعرض للهلاك .. فأمره يختلف .. وقد رحمه اللّه إذا شرع له .

وصحة هذه المقدمات فى الإنسانيات خاضعة لحكم القرآن الكريم والسنة لا لغيرهما لأنها من اللّٰه تعالى :

أما بالنسبة للكونيات فالحكم على المقدمات بالصحة وعدمها يأتى عن طريق المشاعهدة والتجربة العلمية .. ولذلك يندر فيها الخطأ .. لأن التجربة المشاهدة يمكن لكل إنسان أن يراها .. ولأن بعضهم يراقب بعضا .

والرسول الكريم لا يخطئ لأنه تحت إشراف الوحى .. إذ القرآن محفوظ .. ولأنه يشمل السنة المطهرة فهى محفوظة أيضا .. ومن ثم كان التشكيك فيها باطلا من حيث كانت بيانا لهذا القرآن وبدونها لا يفهم .. وقد سخر اللّٰه من حفظها قبل فوات زمن التمحيص . كالبخارى ، ومسلم [البخارى : اشترط اللقاء ولو مرة .. ومسلم : اكتفى بكون الراوى ثقة] . غير أن هناك فروقا بين القرآن الكريم والسنة المطهرة :

فمثلا « الاحتمال يسقط الاستدلال » هذا فيما يتعلق بكلام الناس .. حتى الرسول نفسه .. ذلك بأن القرآن للزمان كله .. فكل معنى يحتمله النص مراد إلا إذا منع من ذلك مانع .

ومن هنا يجب أن يفهم القرآن الكريم بالمنطق الصارم حيث إنه يراعى العصور . كلها أما الرسول فلا :

لأنه يراعى حال المخاطب [خاطبوا الناس على قدر عقولهم . أتريدون أن يكذب الله ورسوله] ؟.

وحتى لا يكذب الرسول : راعى حال المخاطب .

وحتى لا يكذب القرآن : تراه يشير للحقيقة من بعيد حتى لا يصادم واقع الناس.. وليدفع إلى البحث العلمى من ناحية أخرى .. مثل

١ - « يكور الليل على النهار »

٢ - وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر ..

فقد فهم البعض أن مجىء الآية فى سياق الحديث عن القيامة يدل على إرادة الجبال حينئذ .. لكن قوله تعالى بعد ذلك : « صنع اللّٰه .. يدل على إرادة الجبال الآن فهى متحركة . ولأنها فوق الأرض فالأرض متحركة

٣ – [جعل الله الكعبة] .. سنة الطواف

أ – حاشية : أقسم الله تعالى بمواقع النجوم : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ فكان الإقسام بها دعوة للعقل ليتلمس الحقائق وأسرار التعبير حيث قدم المواقع – المسافات – على الكتل – النجوم – لأهمية الأولى بالنسبة للثانية إذ بها يظهر الكبير صغيرا مهما كبر حرمه .

ب – لا تبديل لخلق الله : هذا دليل على ثبات السنن الانسانية .. فالآيات وإن شملت الكونية أيضا إلا أن مجيئها فى السياق الإنسانى أظهر لما يأتى : أ – الإنسانيات مجهولة ب – ليس مكونيات – دور فعل : بل ربما كانت خيرا للإنسان لو سقط .. فيموت شهيدا بخلاف النسانيات فلا بدفيها من عقاب [الآيات : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ الروم – ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الأحزاب : ٣٨] – ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [فاطر : ٤٣] ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ [الإسراء : ٧٧] – وَإِنْ يَعُودُواْ.. ﴾ [الأنفال : ٣٨] – لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ.. ﴾] الحجر : ١٣] . ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ.. ﴾ [فاطر : ٨٥] –﴿ سُنَّةَ اللَّهِ... ﴾ [الفتح : ٢٣] . ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ... ﴾ [الروم] .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٧] .

﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر : ١٣] .

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٥] .

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح : ٢٣] .

٤- ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ [النازعات:٢٩] .. « فهم بعض المفسرين عود الضمير على الأرض لأنهم لم يعرفوا إلا ليلها ولكن الضمير يعود على الشمس لأنها المذكورة قبلاً.. وهذا معنى كشف عنه العلم الحديث الذى أثبت ما يلى –بالإشارة–:

الضوء بذاته لا يرى . لكنه يرى بالمرئى نفسه .. وليل السماء أغطشه اللّه سبحانه وتعالى .. فهناك ظلام مطلق تبدو فيه الشمس قرصاً بلا ضوء وكذلك النجوم .. إذ ليس هناك ما يعكس الضوء كما هو موجود فى أجسامنها هنا – كما يفهم من ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ [الشمس : ٣] والتى هى موجودة فى الهواء الذى يسمح بمرور الضوء .. ويرى هذا الضوء ذاته لأنها هى التى تعكسه .

ولذلك نأى عن أن يكون مطعنا للعوام .

والذين يأخذون أفكارهم عن غيرهما – كالفلاسفة مثلاً مخطئون :

لأن الفلسفة لا تعطينا الإنسانيات حيث :

١- جعلوا العقل فيها معياراً والعقول مختلفة [بخلاف العلم التجريبى الذى يرجع فيه إلى سنن اللّه الكونية مباشرة فهو مضمون الصحة وليس كالفلسفة التى هى نتاج العقل المعرض للخطأ] .

٢- لا يخدعنا تفوقهم العلمى فنتلمس عندهم القوانين الاجتماعية فنكون مقلدين بغير علم وهو الأمر الذى نعاه اللّه على المشركين الذين قلدوا آباءهم .. ولو كانت اجتماعيات الغرب سليمة لأنقذتهم من حربين عالميتين .

وقد أخطأ العقاد إذ عنون لكتاب له [الفلسفة القرآنية] فأضاف كلمة «فلسفة» للقرآن فأوهم بذلك إحاطته بأسراره .

وكيف يدعى ذلك مدع .. وعلماء الفطرة لا يدعون الإحاطة بها ؟ – والقرآن من عند اللّه فاطر الفطرة سبحانه .

وإذا كان القرآن الكريم يقول :

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .

فقد ثبت بذلك إحاطته بالفطرة التى لا يدعى علماؤها الإحاطة بها .. فكيف نسمح لأنفسنا أن نقف موقف العليم بأسرار القرآن الكريم حتى ولو باستعمال لفظ يوهم ذلك ؟

لكن العقاد – رحمه الله – يكشف عن دوره الحقيقى فى مجال الدين فى ضوء الملاحظات الآتية :

١- العقاد يطبق نظرية «فريزر» القائلة بتطور الأديان لتطور الأحياء الداروينية.

٢- فى دفاعه عن الإسلام يبين أنه « أفضل موجود » بالنسبة لما تقدمه وما هو موجود الآن . من أديان مذاهب .. وإذن .. فمن الجائز أن تجود الحياة بعد ذلك بأفضل ومنه؟! وكان عليه ان يؤكد أن الإسلام هو المثل الأعلى الذى لا يطاول .. المهيمن على كل سابق من المذاهب ولا حق لأنه من عند الله الذى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

٣ – يشير إلى أن إيمان أبى بكر راجع إلى إعجاب أبى بكر بالنبى عليه الصلاة والسلام « كبطل » بخلاف إيمان عمر ..

وأين صفاته ﷺ التى ظهرت فى ظل الإسلام ولم تشتهر عنه قبل ذلك ؟ والتى كانت فى الواقع محور إعجاب أبى بكر بمحمد عليه الصلاة والسلام .

٤ – العقاد وإن وضع النبى عليه الصلاة والسلام فوق « عباقرته » إلا أنه جعله واحدا من عباقرة كأبى بكر .. وعمر .. وعلى ..

وهو يكشف بذلك رغبته الحقيقية فى ذيوع هذا الاسم « عبقرى » وحفره فى أذهان الناس ليغيب .. معنى الرسالة تبعا لذلك ؟؟

ومنذ سنوات أراد قوم تثبيت معنى « السفور » فى أعصاب الناس فجعلوا من كلمة : « السفور » اسما لمجلة .. يتردد اسمها على لسان الناس .. ليسهل بعد ذلك استساغة مدلولها .

٥ – العقاد يدعى جهل الإنسان الأول بالله وبالدين .. مع أن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام .. وهو نبى منزه عن هذه الأوصاف :

﴿ الَّذِيَ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ [السجدة : ٧]
وفات العقاد وأمثاله أنه : كما أن سنن الله فى الكون يحتكم إليها وحدها فى اختبار صحة كل نظرية جديدة عن طريق التجربة العلمية .. فكذلك يجب أن نتحاكم فيما تقرره الإنسانيات والمذاهب الاجتماعية إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى طبق سنن الله تعالى فى الإنسان ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] .

الإنسانيات تشمل :

أ - عقيده الإنسان وإيمانه بالله الواحد القادر المدبر .

ب - بالقيم الإنسانية .. ومنها « الجمال »

والتمتع بالجمال - جمال الكون - مطلق ومباح .. والفقير الذى لا يملك تحفة فى منزله عليه أن يتأمل فى مشاهد الكون وما فيها من جمال .

لكن التمتع بجمال الإنسان مقيد بقيود فى الإسلام .. وحينما أطلقنا حرية التمتع به خالفنا بذلك سنة كونية فوقعنا فى مشكلات كثيرة .. ومن هذه المخالفة أن يقول البعض : فليكن الحب أساس الزواج ويرد عليهم الواقع مكذبا هذا الزعم .. حيث كثرت حوادث الطلاق فى أوربا مع أن الزواج قد بنى هناك على الحب المزعوم !..

إن الله عزَّ وجلَّ قد تكفل هو وحده بهذا الحب بين الزوجين .. بعد الزواج ولو لم ير أحدهما الآخر قليلا .. ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] وقد ندب الرسول إلى الرؤية قبل الخطبة .

* * * * *

أول ما تجب معرفته

فى الإنسانيات

١ – الإيمان بوجود اللّٰه عزّ وجلّ

٢ – التوحيد

٣ – كمالات اللّٰه وصفاته اللانهائية

٤ – محمد رسول اللّٰه

دليل الوجود :

أ – وجود القرآن . ب – معانيه . جـ – أثر القرآن فى النفس البشرية نظام سير الكواكب [دليل الواحدنية]

أ – المشاهدة – ب القياس على حالة الناس ج – نظام الكون .

الموضوع

أول واجب على الباحث فى الإنسانيات أن يتعرف على خالقه مؤمنا بوجوده وواحدانيته إذ الكفر به تعالى حتى عن جهل أوعناد لا يثمر إلا الهلاك الأبدى ولو كان صاحبه على خلق حسن .. [ودليل الوجود]

أ – وجود القرآن نفسه .. والذى يشك فى القرآن يجابه بالسؤال الآتى :

إلى من ترجع الضمائر فى مثل قوله تعالى :

« خلق السموات بغير عمد ترونها » والآيات التى تخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام دليل على أن القرآن ليس من عنده .. بل من عند من يخاطبه .

وقد عرف اللّٰه تعالى نفسه لخلقه فى القرآن الكريم إذا يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] وعلى هذا فالمنطق الصارم يؤكد أن وجود القرآن دليل على وجود اللّٰه تعالى لما يأتى :

١ – القرآن لا بد أن يكون من عند أحد . وليس هو من عند الرسول .

٢ – من الذى يخاطب محمدا ﷺ فى القرآن ؟ هو الذى يرجع إليه ضمير المتكلم .

٣ – ومن الذى يرجع إليه ضمير المتكلم ؟ هو الذى خلق ما ذكر فى القرآن .

٤ – ومن هو ؟ هو اللّه تعالى كما يدل عليه الالتفات فى الآيات .

ب – معانى القرآن المنسوبة إلى اللّه تعالى لا يقدر عليها سواه فى القصص عما حاق بالأمم السابقة الكافرة باللّه من الإهلاك والتدمير والإبادة ولا يقدر على ذلك إلا اللّه تعالى مثل ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إلى آخر [سورة ق : ١٢] .

ج – أثر القرآن فى النفس الإنسانية المؤمنة به : أفرادا وجماعات : – الفرد .. كعمر الذى دفن ابنته فى التراب .. ثم يحوله اللّه ﴿ إلى طاقة من الحنان .. الأمة: كان أثره بارزا فيهم .. وكذلك الإنسانية لو آمنت به .

د – الكواكب ونظام سيرها : –

ينبئ عن قوة لانهاية لكمالاتها لأنها وقدرتها تدبر هذا الكون ولا يمكن أن يكون ذلك مصادفة بل لحكمة [لا يقال هنا لغرض .. لأن هذا يعبر به عن عمل الإنسان أما بالنسبة للّه تعالى فيعبر بالحكمة]

وهل خلق العالم
مصادفة ؟ !

لا يمكن أن يكون وجود العالم مصادفة . فطلوع الشمس وغروبها .. والقمر..والنبات وكثير من مظاهر الكون دليل على وجود إله واحد واجب الوجود:

* * * * *

الفرق
بين الدراسات الاجتماعية
والكونية « هـ »

بادئ ذى بدء نقرر مع الباحثين صعوبة الدراسات فى المجال الاجتماعى عنها فى المجال الكونى .. لأسباب منها :

١ – ظواهر الاجتماع تمضى . ولا يمكن استرجاعها لدراستها . بخلاف مرئيات العلم التى يمكن إحضارها والتحكم فيها بإجراء التجارب عليها .

وهذا هو السر فى كثرة التدليس فى علم الاجتماع .. فكثر فيها الشك عن هوى.. والتخمين رجما بالغيب .

فى الوقت الذى تملك فيه علوم الطبيعة من سلاح التجربة المتاحة ما يقيها الزلل ويحميها من التدليس .

لقد تحررت علوم المادة من قيد الزمان والمكان .. وهو ما قيدت به أحداث التاريخ .. فلا يحلل الحادثة إلا من رآها بعينه .

٢ – الطبيعة مشاهدة .. والإنسان عالم مجهول . مجرد ملاحظة الكونيات كاف للدلالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى . على اى نحو تصورها الإنسان : كما تصور اليونان – خطأ – أن القمر ثابت فى كرة تدور حوله . كذلك فإن رؤية الكائنات الأرضية يكفى فى الدلالة على عظمته سبحانه ..

أى : أن الخطأ فى تصور الماديات لا يحول بين الإنسان وبين الإحساس بقدرة الخالق سبحانه . ولا تشترط الصحة برهانا على ذلك .

٣ – العقاب فى السنن الاجتماعية قد يتأخر . فقد تقع الأمة أو الفرد فى خطأ يستلزم عقابا ما ... ثم لا يصيبه العقاب المرصود لهذا الخطأ .. لا سيما وعمر الإنسان محدود وقد لا يتسع ليرى النتيجة ..

أما فى الماديات : فالنتيجة فورية وحاسمة فمن وضع يده فى النار – احترق ..

من أجل ذلك ترى الناس أكثر إحساسا بسنن اللّه تعالى فى الماديات . دون المعنويات .

يقول الشيخ الشعراوى :

لا تظلموا الأزهر وعلماءه :

أنتم بكل أسف تقارنون بين فشل علم الدين . ونجاح العلوم الأخرى كالطب والهندسة أو الزراعة . لأنكم لا تفرقون بين حقيقة هذا وذاك :

هذه العلوم : قصارى ما فيها أن يقوم معلمها بتوصيل المعلومات إلى ذهن الطالب .

ثم بعد ذلك فإن الطالب نفسه سيقبل عليها ويتمسك بها .

ويستزيد منها . لأنها ستفيده فى مسائل دنياه .. حتى فى انحرافاته ... لكن علم الدين شىء آخر .

فالطالب فيه لا يتلقى مجرد الإيمان باللّه ..

وإنما يطالب بعد إيمانه بأن يفعل بعض أشياء . ولا يفعل أشياء أخرى .

فليس كافيا من الطالب أن يعمل بالدين وأحكامه . ولكن أن يحمل نفسه على أداء ما يطلبه منه الدين ..

فعلم الدين إذن فيه كلام يقال ...

وفيه جانب آخر : سلوك يفعل .

ومؤدى ذلك أنه لكى ينمو الدين وتتحقق ثماره . لابد من وجود من يعلمه . ومن يطبقه . .

ولكننا فى كثير من الأحيان . نجد الذى يعلم ولا نجد الذى يطبق [١] .

إن العلم وهو الذى يمتلك هذه الوسائل الكافية ومع ذلك يذهب فى الاحتياط إلى منتهاه حين يجعل مهمة الدارس فى المجالات الإنسانية أكثر صعوبة .

وذلك واجب الدارس مطلقا ...

أما الدارس المسلم فإن دينه يفرض عليه مزيدا من التحقيق والتوثيق بقدر ما يعقد الأمل عليه وحده فى الوصول إلى حقائق الحياة الإنسانية مهما كان الوصول إليها صعبا .

---

(١) الأهرام ١٦/١١/ ١٩٨١ .

٤ – الإنسان بخاصيته الفكر عنده قادر على استنباط العبر الدروس .

وإذا كان القرآن الكريم والسنة المطهرة هما ضمان سلامة المقدمات .. ثم صحة النتائج ..

بيد أن الإنسان كثيرا ما يستقل لفكرة القاصر بعيدا عن منهج اللّه تعالى .. فيخطئ .

ومهما بلغ الإنسان من الدقة فإنه معرض للتورط بالوقوع في خطأ ولو كان يسيرا .. وقد يكون هذا الخطأ باطلا يتزيا بشعار الحق فيخدع الإنسان .

ويضل سعيه . من حيث كان الوقوع فى باطل واحد مفسدا لكثير من الحقائق ..

فلا بد من التمحيص قبل أن يضل طالب الحق فلا يدرى من أين تبدأ الحقيقة . ولا أين ينتهى الخيال .

٥ – فى مجال الماديات يراقب العلماء بعضهم بعضا فيندر الخطأ بينهم :

وعلى سبيل المثال :

فقد كان المعتقد أن « الأوكسجين » هو وحده الفعال . لأن به يصدأ الحديد . ويكون الاحتراق . أما « الأزوت » فليست له هذه الخاصية .

ثم اكتشف أخير أنه إذا مر على شرارت كهربية يصبح حينئذ فعالا .

وقد اختلف عالمان فى ذلك . وزال الاختلاف باكتشاف سببه لما أعيدت تجربة المخالف أمام الجمعية الكيماوية البريطانية .

يمكننا بعد ذلك أن نقول : إن وسائل العلم المادى تتمتع بخواص ثلاث :

أ – إنها كثيرة .

ب – ثم إنها بذاتها كافية .

جـ – يمكن إرجاعها وإعادة التجربة عليها .. بعكس حقائق التاريخ الإنسانى التى يمكن أن يجور عليها الخيال ولا تمكن إعادتها .

ومن رحمة اللّه به أن وهبه ما يطامن هذه الصعوبة . ويعينه على وعورة الطريق .

ذلك بأنه يقف – كما قيل – : بين عاملين اثنين يحببانه فى الحق . دينه .. وعلمه.. ويقف أيضاً بين مبغضين للباطل .

دينه وعلمه كذلك .

أى أنه يحب الحق مرتين . ويكره الباطل مرتين أيضاً !

وفى ظل من هذه الرحمة يواصل سعيه . وإنه لواصل إلى الحق بتوفيق اللّه مهما كلفه ذلك .

[مناقشة رأى الباحثين] بالغ بعض الباحثين فتصور الإنسان حراً قادرا على التفلت من سنن الطبيعة .

ونستطيع أن نقول :

إنه مع صعوبة الدراسة الاجتماعية فليس من المستحيل خوض غمارها والوصول فيها إلى سنن لا تتخلف .

ونجد أنفسنا هنا فى مواجهة الباحث على قوله الآنف الذكر ... ونبدأ بسؤال :

هل الإنسان فعلا – كما قال – حر .. حرية مطلقة تمكنه أحياناً من التفلت من سنن اللّه تعالى فى الاجتماع ؟

أم أنه حر فى نطاق مشيئة اللّه سبحانه ؟ .. ومن ثم فحريته مقيدة محكومة بهذه المشيئة الإلهية ؟

يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاّ أَن يَشَآءَ اللّهُ رَبّ العَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩].

فهو إذن مقيد بمشيئة خالقه عزّ وجلّ .

فليقل الإنسان نعم.. وليقل إذا شاء : لا.. فسنة اللّه تعالى ماضية فيه رضى أم أبى .

من عمل صالحا . فلنفسه .

ومن أساء . فعليها .

المهم أن للّه سننا فى الاجتماع لها موعد لا تخلفه .

فمن زنى ، ومن قطع رحمه . سيلقى جزاءه حتما ..

والأمة التى تبغى وتفسد فى الأرض .. واصلة إلى مثل ما وصل إليه أمثالها من البغاة المفسدين ..

وإذا كان الهلاك دركات .. كما أن الفوز درجات ...

فإن ذلك لا يغير من الحقيقة الثابتة وهى أن العذاب واقع بالمفسدين لا محالة غدا أو بعد غد ..

ولا تهمنا درجة النتيجة : قوة أو ضعفا .. قربا أو بعدا ..

المهم : أنها ستقع حتما . لابد أن تستتبع المقدمات نتائجها .

ولو قال الدكتور : (١)

[لعدم دقة المقاييس الاجتماعية] .. أى : أنه لواتهم المقاييس الإجتماعية المستعملة فى وزن ظواهر الحياة لكان للتعبير ما يسوغه .. من حيث إن الناس سيتخبطون فى مجال الدراسات الاجتماعية ولا نجاة لهم إلا بالعودة إلى منهج اللّه تعالى.

وإذا كان هناك ثابت وأثبت . فربما جاز لنا أن نقول : إن السنن فى المجال الاجتماعى أثبت منها فى مجالى الطبيعة .

والدكتور الباحث نفسه يعترف بذلك . ويلقى معنا فيما نقرره من صرامة السنن فى مجال الإجتماع فيما ذكره من حديثه ﷺ :

[يا بنى هاشم : اعملوا .. فإنى لا أغنى عنكم من اللّه شيئا] أى : أن عمل الصالحات مستتبع للفوز حتما . ولو أن بنى هاشم – وهم أهله – .

ولو أن فاطمة وهى ابنته .

لو أن هؤلاء على جلالة أقدارهم لم يعملوا صالحا . وتنكبوا طريق الجنة . لحقت عليهم كلمة العقاب . ولا يقدر محمد ﷺ إنقاذهم ! وهو الرسول الأمين !

ولو جاز تخلف الجزاء مرة واحدة .. لتخلف هذه المرة تكريما له ﷺ ..

ولكن الإسلام يأبى الاستثناء ..

ويعلن عن ذلك محمد ﷺ نفسه تأكيدا لصرامة السنن فى دين اللّه .

محمد رسول اللّه

الشهادة بأن محمدًا رسول اللّه تقتضى العمل بكل ما جاء به فعلا أو قولا أو تقريرا فكل ما يعمله الرسول صواب تحت إشراف الوحى فهو حجة .. وعنه تؤخذ الأحكام الشرعية من الحل والحرمة وما ينبغى فى ظروف الحياة كلها .

فإذا كنا نعجب بالشافعى – رضى اللّه عنه – مثلا لأنه اقتدى بالرسول فى بعض صفاته فكيف يكون إعجابنا بمحمد ﷺ وهو الكمال البشرى ؟

---

(١) ردنا على من نناقشه ممن يهوّن من أثر السنن الاجتماعية .

لا يقر الرسول على خطأ لأنه تحت إشـرف الوحـى .. لكنـه كبشـر يخطـئ فـى الاجتهاد فيصححه الوحى ولم يقع منه ذلك إلا فى حوادث تعد على الأصابع :

١ - ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ • أَن جَآءَهُ الأَعمَىٰ ﴾ [عبس : ١ ، ٢] .

٢ - ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسرَىٰ ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

٣ - ﴿ وَإِذ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ ﴾ [الأحزاب :٣٧] .

٤- ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم ﴾ [التوبة : ٤٣].

وقد قال الوحى كلمتـه فـى هـذه المواقـف بمـا يضـع الحـق فـى نصابـه . وهـى مواقف لم يكن لبشر أن يعلم حكم اللّه فيها .

وقد كان موقفه من ابن أم مكتوم يقصد به مصلحة الدعوة ذاتها رجـاء أن يسـلم من كان يدعوهم إلى الإسلام وقتئذ .

وكذلك كان موقفه من زيد أيضا .

وكان تصرفه بشأن الأسرى الذى صار هـو الشـرع فيمـا بعد كمـا فـى صـورة القتال موافقا للفطرة الإنسانية الكريمة إلا أنه عوتب فى ذلك بيانا لحكم اللّه فـى مثـل تلك المواقف ودليلا على أن القرآن مـن عند اللّـه .. أى أن موقفـه ذلـك كـان سـابقا لأوانه (فإما منا بعد ..)

فقد صار هو الشرع ..

وتحمل مسئولية الرسالة لا يقدر عليها إلا محمـد ﷺ .. فهـو وحـده كـان يطبـق الأحكام كلها طبق مراد اللّه سبحانه وتعالى .. وهو أمر تعجز عنـه الأمـة مجتمعـه ذلـك بأنه « خيار من خيار من خيار » وقد وصفه اللّه عزّ وجلّ بالعظمة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وليس بعد وصف اللّه العظيم له قول لكاتب كالعقـاد الـذى وصفـه بأنـه عبقـرى حتى وإن وضعه على رأس قائمة العباقرة .

ومن دلائل رسالته أن تنبأ بقيام دولة إسرائيل فى قوله ﴿ لتقاتلن اليهود .. ﴾ .

فلن يكونوا مقاتلين لنا إلا بعد قيام دولتهم .. لكنه أشار إلى انتصارنا عليهم لكن تحديد ميقات هذا الانتصار نحدده نحن .. وهو قريب إن شاء اللّه تعالى .

* * * * *

خاتمة

فى فضل القرآن

إذا سعد المسلم بعبادته . وما تثمره من بركة فى عمره . وأهله . وماله . وولده. ثم ما تحققه من ثواب وحسن مآب .. فإن سعادته سوف تتم فى صحبة القرآن الكريم الذى يشفى به اللّه الصدور . وييسر به الأمور .

وإذا تنافس المتنافسون فى ساحات الطاعة .. فإن القرآن الكريم فى طليعة ما يسارعون فيه . وما يسعون إليه .

والمسلم الذى يمكن اللّه تعالى للقرآن فى قلبه فصار به عالماً .. وله معلماً .. هذا المسلم .. بهذه النعمة .. يصل إلى قمة يحسده الناس عليها :

قال ﷺ :

[لا حسد إلا فى اثنتين :

رجل أتاه اللّه هذا الكتاب . فقام به آناء الليل . وآناء النهار (١) . ورجل أعطاه اللّه مالاً .. فتصدق به آناء الليل وآناء النهار] وهو بهذا واحد من سادات البشر المرموقين .. وإذا كان هناك من يعتز بماله .. وحسبه .. وسلطانه .. فإن صاحب القرآن سيده رغم أنفه . وإن لم يتحدث عنه إعلام !

قال ﷺ :

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٢) .

وهذه الخيرية ليست نسبية .. ولا جزئية .. ولكنها ثابتة لأهل القرآن ثبوتا راسخاً : فى الدنيا . وفى الآخرة :

روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر – رضى اللّه عنه – قال :

[قلت يا رسول اللّه : أوصنى . قال : عليك بتقوى اللّه . فإنه رأس الأمر كله.

قلت : يا رسول الله : زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن فإنه نور وبركة لك فى الأرض . وذخر لك فى السماء] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

لقد وضع العرف الجائر مدرس القرآن والشريعة فى ذيل القائمة بينما تصدر مدرسو المواد الأخرى هذه القائمة إلى الحد الذى كان مدرس اللغة الأجنبية فى المؤسسة الدينية حريصاً على التنويه بأنه مدرس اللغة الأجنبية فرارا من وصمه بتهمة ينكرها : وهى أنه مدرس الدين واللغة العربية .

ولكن هذه الأحاديث الشريفة تقلب الأوضاع .. ولا تظلم بهذا القلب أحداً .. وإنما تضع الحق فى نصابه .. وتحدد الحجم الحقيقى لكل إنسان .. جاعله من أهل القرآن حداة قافلة العمران !

من كرم القرآن

من بركة القرآن الكريم فى الدنيا أنه :

كما قال ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب اللّه . فله به حسنة . والحسنة بعشر أمثالها .

لا أقول : ألم .. حرف ..

ولكن : ألف : حرف . ولام : حرف . وميم : حرف » [١] .

وإذا كانت هذه بركته على قارئه .. فإنها مضافة إلى بركته حين تستمع إليه :

روى أحمد عن عبادة بن ميسرة :

[من اسمتع إلى آية من كتاب اللّه .. كتبت له حسنة مضاعفة . ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة .

ولاحظ مضاعفة حسنة الاستماع .. وقد يكون من ذلك .. لأن المستمع يجمع شتات فكره .. ويفتح أبواب قلبه .. ثم لا يكون هناك شاغل من معاناة القراءة .. ومن ثم يكون استقباله لواردات القرآن على أوفى معانيه .

بل إن من كرم القرآن أنه لا يختص بثوابه الماهر فيه قراءة وفهماً وإنما للأمى نصيب من الأجر غير منقوص .. بل كان أجره مضاعفاً .

روى البخارى ومسلم :

[والذى يقرؤه . وهو يشتد عليه . له أجران] .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب .

ومعنى ذلك كله :

أنك بصحبة القرآن تدخل ساحة الرضوان . تحقق بركة وثواباً تجدد بهما خلايا حياتك التى تأكلها الخطايا اليومية .. معوضاً به ما بلى من نسيج عمرك . لتظل دائماً موفور الشباب . دائم الحيوية . وهذا بعض ما يشير إليه ما روى عن ابن عباس - رضى اللّه عنهما - :

[من قرأ القرآن .. لم يرد إلى أرذل العمر] .

وذلك قوله تعالى :

[ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا] قال : الذين قرأوا القرآن .

فأوفر الناس عافية . وأطولهم عمراً .. هم أهل القرآن وخاصته .. وأولى البيوت بالشرف ما تليت فيه آياته .

وأبعدها عن الشرق والقرار .. تلك البيوت التى خلت منه .. ولو كانت ناطحات سحاب ..

قال ابن مسعود - رضى اللّه عنه - :

« إن أصغر البيوت : بيت ليس فيه شىء من كتاب اللّه » (١) .

والقراء هم الأمراء

عن أبى هريرة - رضى اللّه عنه - قال :

« بعث رسول اللّه ﷺ بعثاً . وهم ذوو عدد فاستقرأهم . فاستقرأ كل رجل منهم- يعنى ما معه من القرآن -

قال :

فأتى على رجل من أحدثهم سنا . فقال : ما معك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا. وسورة « البقرة » قال : أمعك سورة « البقرة » ؟. قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم » (٢).

وهكذا كان أمير القوم أكثرهم حظاً من القرآن . ولو كان أصغرهم سناً .. إنهم وإن ولدوا قبله .. لكنه بهذه الميزة صار كبيرهم .

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

وهكذا أيضاً ترى حامل القرآن رجلاً متحركاً .. قيادياً .. لا كما يراه الناس اليوم خامل الذكر معزولاً عن القافلة ..

فإذا رحت تسأل عن سرّ عزلته قيل لك : لأنه من أهل القرآن .. فكأنما كتب على أهل القرآن أن يحرموا من الدنيا .. وعليهم أن يخلو الطريق لطلاب الدنيا .. فهم وحدهم الجديرون بقيادة الركب .

وقديماً .. وفى بعض بلاد الإسلام .. مكر الاستعمار بحملة القرآن فأعفوهم من الانتظام فى سلك الجيش .. وكانت المؤامرة محبوكة حين زعم الماكرون أنهم بهذا الإعفاء يكرمون حملة القرآن ؟! ولكن الذى يريدونه حقاً : هو إقصاؤهم عن منصة التوجيه .. ومواطن الشجاعة . رهبة من أثر القرآن فى حياتهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د . محمود محمد محمد عمارة

* * * * *

الفهرس